جامعة جنوب الوادي

مقرر

تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر

الفرقة الثانية- عام تاريخ

أستاذ المقرر

د/ آية عبد الوارث سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

العام الجامعي

2025/2024

محتوى الكتاب

أولًا الموضوعات	الصفحة
الفصل الأول: كشف أفريقيا في التاريخ الحديث	
أولا: عوامل تأخر كشف أفريقيا	
ثانيًا: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب	
ثالثًا: الإسلام في القارة الإفريقية.	
الفصل الثاني: دوافع الاستعمار الأوروبي في أفريقيا في العصر الحديث	
أولا: تعريف الأستعمار.	
ثانيًا: دوافع الاستعمار الأوروبي.	
الفصل الثالث: الكشوف البرتغالية للقارة الأفريقية	
- دوافع الاستعمار البرتغالي	
- رحلات البرتغال الكشفية	
(رحلة هنرى الملاح- ديجو كم- بارثليميودياز- بدرو دى كوفيلهام- فاسكوداجاما)	
- البرتغاليين على سواحل أفريقيا.	
- النظام البرتغالي فى الكونغو وأنجولا.	
- النظام البرتغالي فى موزمبيق وشرق أفريقيا.	
الفصل الرابع: التنافس الأوروبي على قارة أفريقيا	

- الشركات الستعمارية الأوروبية.

1- الإسبانيون

2- البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون

3- الشركات الهولندية

4- الشركات الأنجليزية

5- الشركات الفرنسية

الفصل الخامس: مؤتمر برلين 1884- 1885م

- الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر

- نشاط الدول الأوربية في أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر

- تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين

- مؤتمر برلين وما دار في جلساته

- الاتفاقات الجانبية على هامش المؤتمر

- أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا.

- التطورات التي مربها حوض الكنغو بعد مؤتمر برلين

- نظام الحكم البلجيكى في الكنغو.

- الفصل السادس: تجارة الرقيق

- بريطانيا وتجارة الرقيق

- حركة المطالبة بإلغاء الرق

- الجهود الأفريقية لإلغاء الرقيق

- أثر إلغاء الرق على المجتمعات الأفريقية

ثانيًا: الأشكال والصور

شكل 1: خريطة إفريقيا بين عامي 1500-1788م

شكل 2: خريطة لطرق انتشار الإسلام في إفريقيا

شكل 3: خريطة افريقيا في منتصف القرن التاسع عشر

شكل 4: خريطة افريقيا في آواخر القرن 19م

شكل 5: خريطة الاستعمار الأوروبي في افريقيا عام 1914

ثالثًا: المصادر والمراجع

رابعًا: روابط الفيديو

فيديو1

https://www.youtube.com/watch?v=2GkShGpDaak

فيديو 2

https://www.youtube.com/watch?v=KEP8RnR2gi0

الفصل الأول

كشف أفريقيا في العصر الحديث

أولا: عوامل تأخر كشف أفريقيا

ثانيًا: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب

ثالثًا: الإسلام في القارة الإفريقية.

أولا عوامل تأخر كشف أفريقيا:

يرجع تأخر كشف القارة الأفريقية إلى عدة أسباب أهما الآتى:

أولًا: قصر سواحل القارة بالنسبة لمساحتها:

وبالطبع كلما ازداد ده طول الساحل كلها ما أعطى فرصة أوسع للتغلغل للداخل.

ثانيًا: قلة الرؤوس والخلجان وقلة تعاريج السواحل: فإذا قارنا سواحل افريقيا بسواحل أية قارة أخرى ندرك هذه الحقيقة، وقد ترتب عليها قلة الموانئ الطبيعية، وهذه الموانئ في العادة هي المنافذ التي تطل منها القارة على العالم الخارجي ويمد العالم الخارجي بصره منها للقارة.

ثالثًا: قله الجزر القريبه من الساحل:

فالجزر يمكن أن تتخذ كمناطق تستقر فيها القوة ثم تنفذ منها بعد ذلك للداخل.

وإذا قارن بين آسيا وأفريقيا من جهة اخرى ندرك ان الجزر الأفريقية قليل وصغير الحجم باستثناء جزيرة مدغشقر وهي رغم اتساعها فإن تيار موزمبيق جعلها منعزل عن اليابس الأفريقي.

وحتى جزر زنجبار، وبمبا، ومافيا التي تواجه الساحل الشرقي- تبعد عن الساحل بمسافات، فقيمتها كمحطات كبيره للاتصال بالداخل محدوده.

رابعًا: السواحل الافريقية في جملتها ظهيرها فقير: اذا تؤدي المناطق الصحراوية أو شبه صحراوية وغابات كثيفة يصعب اختراقها.

خامسًا: قلة اهمية الأنهار الافريقية شرايين تؤدي للداخل:

وذلك لأن الانهار تنتهي إلى البحر بدالات كثيرة الفروع والمستنقعات؛ والسدود بالإضافة إلى المذاطق المائية، وينطبق هذا على معظم الأنهار الأفريقية (الكونغو، والزمبيزي، والنيجر) وحتى النيل الذى اشتهر منذ القدم _ ولكن شهرته كانت فى مجال الري والزراعة أكثر طه كمجرى ملاحي، وهناك عقبات معروفة كالجنادل تعترض مجراه كما أن لغز النيل (سر النيل) وأسباب فيضانه ومنابعة لم تكتشف إلا حديثًا.

سادسًا: عوامل مناخية :

فقارة أفريقيا تقع فى المناطق المدارية والاستوائية وهى مناطق غير مشوقة للإنسان الأوربي ليطرقها أو ليعيش فيها٠

سابعًا: الأمراض الأفريقية :

وهى الأمراض التى كانت منتشرة بالقارة مثل الملاريا، ومرض النوم ولم تكن قد كشفت وسائل حاسمة لعلاجها .

ثامنًا: **اهتمام الدول الأوروبية**

حتى حين وضعت أقدامها على المناطق الساحلية أو القريبة من سواحل القارة لم يكن موجها للقارة وما بداخلها - لكن كانت الأنظار متجهة للشرق ومنتجاته فظلت مناطق الاستقرار الأوربي بالقارة مجرد محطات للسفن أو مراكز تجميع للسلع الأفريقية وأدى ذلك لتأخر كشف داخل القارة٠

تاسعاً: الأفريقيون أنفسهم وقفوا فى وجه الأوروبيين وقاوموهم لأنهم لم يعرفوهم إلا كمستعمرين أو تجار رقيق.

أما بالنسبة للسواحل الأفريقية فهى كالتالى:

١- الساحل الشمالي:

هو الساحل المواجه لأوروبا وقد قامت به حضارات من أقدم الحضارات التى عرفها الإنسان مثل الحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية وحضارة قرطاجة - لكن اتجاه هذا الساحل كان للبحر المتوسط والدول الأوروبية والأسيوية المطلة على هذا البحر.

والصحراء الكبرى اي الواقعة جنوب الساحل الشمالى كانت حاجزا طبيعياً حال فى كثير من الأحيان دون وصول مؤثرات البحر المتوسط إلى داخل القارة - ولذا فكثيرون من الكتاب الأجانب يعتبرون أن أفر يقيا تبدأ جنوب الصحراء الكبرى.

٢- الساحل الغربى :

أقرب لأوروبا من غيره وقد وصل إليه الأوربيون فعلا في أواخر القرن

الخامس عشر - لكن أقتصر الأمر على نقط ساحلية فقط فحسب وذلك لأسباب منها:

أ) نظر الأوروبيون كما قلنا لأفريقيا على انها وسيلة لتحقيق حلمهم فى الوصول إلى الشرق وتجارته فحسب، وقد حقت لهم الحصون التي اسسوها على الساحل هذا الهدف.

ب) الجزر القريبه من هذا الساحل مثل (جزر كناريا) قليلة الأهمية لاكتشاف داخل القارة لانها تقابل الصحراء وكذلك توجد جزر اخرى قرب الساحل الغربي للقارة مواجهة الأقاليم الاستوائية من القارة.

ج) الموانئ الطبيعية في هذا الساحل قليلة.

د) الانهار في هذا الساحل لا تسهل مهمة الوصول الداخل.

وأهم هذه الأنهار نهر النيجر- لكنه لا يؤدي الى داخل القارة فهو يتجه شمالا ثم يأخذ اتجاه الشمال غربيا ثم جنوبيا غربيا .

والاورنج سريع الجريان- في فصل الأمطار كما تتعرض مياهه في مجراه الادنى للجفاف اول للتسرب في الكثبان الرملية.

والسنغال يوجد حواجز رملية أمام مصبه تعترض الملاحة فيه.

ه) الساحل الغربي من الناحية المناخية استوائي صحراوي وقد أطلق الأوروبيون على ساحل غانا (مقبرة الرجل الأبيض) لانتشار الأمراض فيه.

٣- الساحل الجنوبى :

بعيد إلى حد ما عن أوروبا كما أن الهضبة فى جنوب أفريقيا مرتفعة وقريبة من الساحل .

٤ - الساحل الشرقى :

هذا الساحل يطل على البحر الأحمر والمحيط الهندى، وكان اليحر الأحمر همزة وصل بين أسيا وأفريقيا _ لكن رغم أن الساحل الشرقي لأفريقيا به بعض الموانئ الصالحة، وبعض الجزر القريبة من الساحل مثل زنجبار، وبمبا، بالإضافة إلى أنه من الناحية المناخية أكثر ملاءمة من الساحل الغربى - فهو بعيد

إلى حد ما عن أوربا وكان الطريق إليه مجهولاً للأوروبيين، كما أن (المماليك) فى مصر والحجاز كانوا يتحكمون فى الطريق ألملاحى بين الشرق وأوروبا ويحرمون دخول السفن الأوروبية مياه البحر الأحمر.

ثانيا: النشاط الكشفي للمصريين القدماء والعرب للقارة الأفريقية

رغم أن معرفة الأوروبيين لما في داخل القارة الأفريقية كانت متأخرة و ترجع للعصر الحديث_ إلى أننا نشير إلى أن المصريين القدماء وكذلك العرب كانت لهم معرفة باجزاء من القارة قبل الأوروبيين.

_1- تدل بعض بعض النقوش والآثار على أنه كانت بين مصر وبلاد النوبة الواقعة جنوبا علاقات منذ فجر التاريخ، ومنذ عصر الدولة القديمة في مصر(300 ق.م) بدأنا نجد اسم(بلاد النوبه) بكثرة على الآثار المصرية.

ونستدل من هذه الآثار على تعدد رحلات المصريين القدماء نحو الجنوب في عهد الدولة القديمة، وأن المصريين القدماء اسهموا في هذا الوقت المبكر في تنظيم طرق الاتصال ببلاد النوبة سواء عن طريق البحر في الدروب الصحراويه مارين بالواحات ، او عن طريق النيل فقد حفروا القنوات للتغلب على العقبات الطبيعية في منطقة الجنادل الواقعة جنوبي أسوان.

ومن أهم مظاهر هذه الصلات بين مصر وبلاد النوبة انتشار المعابد والمعتقدات المصرية في هذه البلاد. وحين أدى الانقسام والخلافات على العرش في اواخر الاسرة العشرين لتدهور الاحوال الاقتصاديه والاجتماعيه والسياسيه في مصر_ هاجر عدد كبير من المصريين للجنوب واستقر كثيرون منهم قرب الشلال الرابع وساهموا في قيام مملكة (نباتا النوبيه)، وقد نجح أحد ملوكها (بعنخي) في غزو مصر، وخلفتها بعد ذلك في بلاد النوبة مملكة أخرى هي (مملكة مروى).

2- وكذلك ثبت من النقوش أنه في عصر الدولة القديمة في مصر كانت هناك علاقات تجارية بين المصريين وبين سكان الأقاليم المطلة على البحر الاحمر، وقد ازدادت هذه العلاقات في عصر الدولة الحديثة.

ويذكر في هذا المجال بعثة (الملكة حتشبسوت) من ملوك الأسرة الثامنة عشر لبلاد بنت (إرتريا، والصومال) والتي سجلت صورها على معبد الدير البحري بالأقصر بمصر.

3- وقد ذكر المؤرخ هيرودوت الذي زار مصر عام 457 ق.م _ أن احد الفراعنة المصريين (نيخاو الثاني) أرسل في القرن السادس قبل الميلاد جماعة من الفينيقيين اتجهوا في البحر الاحمر جنوبا وبعد ان غابوا حوالي ثلاث سنوات عادوا لمصر عن طريق البحر المتوسط_ فإذا صحت روايته فإن هذا يعني أن هذه الرحلة البحرية دارت حول القارة الأفريقية الأمر الذي لم يتحقق للأوروبيين إلا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح.

4- اهتم الجغرافيون بأمر النيل وتتبع مجراه، فبطلميوس الجغرافي وهو رجل مصري يوناني رسم خريطه للعالم وصف النيل ومجراه حتى مدينة مروى (بين الدامر وشندي) كما وصف نهر العطبرة، والنيلين الأزرق والأبيض وغير ذلك من المعلومات التي ذكر أنه استقاها من مؤلف أخر ضاعت كتاباته.

5- ويعتقد بعض الباحثين أن هناك تشابهاً واضحاً بين بعض المعتقدات وبعض الآلات والأدوات التى ما زالت موجودة لدى قبائل غرب أفريقيا وبين المعتقدات والآلات التى كانت لدى المصرى القديم .

وقد أثار هؤلاء العلماء تساؤلا هاماً وهو:

هل يدل ذلك على أن الحضارة الفرعونية وصلت تأثيراتها بطريقة ما إلى غرب أفريقيا وأن ما نلاحظه اليوم هو من بقايا هذه التأثيرات (بحث هام للأستاذ- الدكتور عبد المنعم أبو بكر).

٦- كذلك هناك اتجاه يميل لترجيح أن بعض الآثار التى عثر طيها فى زيمبابوى (رودسيا الجنوبية سابقاً) ترجع إلى تاثيرات فرعونية.

هذا وأشير إلى أن المصريين سيلعبون فى العصر الحديث خاصة فى عصر محمد على وإسماعيل دورا أخر فى الكشف عن منابع النيل والأقاليم الواقعة على

ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى التى أمتد إليها نشاطهم فى عهد إسماعيل فوصفوها وعمروها .

أما عن معرفة العرب بأفريقيا ونشاطهم فيها :

فقد كان للعرب دور فعال ونشاط كبير فى شمال القارة بالذات، وفى سواحلها الشرقية والمناطق الواقعة خلف هذه السواحل هذا بالإضافة إلى مساهمتهم فى الكشوف الأوروبية الحديثة كرواد وأدلاء للمستكشفين الأوروبيين ، كما أن.بعض الرحالة العرب كانت لهم رحلات وجولات زاروا فيها مناطق مخلفة من القارة .

١-ففيما يتعلق بالساحل الأفريقي الشرقي فقد جاء العرب فى وقت مبكر من شبه الجزيرة العربية من إمارة (عمان) خاصة إلى الساحل الأفريقى الشرقى المواجه لبلادهم ، فهم كما عبر عن ذلك كوبلاند (Coupland) _ الجيران لسكان شرق أفريقيا (next door neigburs).

فكان لابد أن يمدوا نشاطهم وتجارتهم وحاضرتهم إلى سواحل إفريقية الشرقية المواجهة لهم.

وبالإضافة إلى الجوار هناك عامل جغرافي يتمثل فى هبوب الرياح التجارية الشمالية الشرقية فى ديسمبر ، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهابة فبراير، ثم ينعكس الأمر فمن إبريل تهب رياح شديدة من الجنوب الغربي ، وهكذا اصبح التجار العرب ينظمون رحلاتهم للساحل الأفريقي المقابل لهم حسب مواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم .

واستقر بعض العرب فى الساحل الأفريقي المقابل لشبة الجزيرة العربية ليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم فى شبه الجزيرة وبين الأفارقة ، وانتشر النفوذ العربي بعد ذلك فى شرق القارة ، ثم توغلوا للداخل ، وترتب على هذا في النهاية تكوين (إمارات عربية) على الساحل الشرقي وهذه الإمارات أصبحت تمارس فيها بعض الأنظمة والعادات الأفريقية الأصيلة بالإضافة إلى عادات وأنظمة وتقاليد عربية ، وتمثل هذا الامتزاج بين الأشياء الافريقية والعربية فى (اللغة السواحيلية) وهى لغة تحتوى على العديد من الألفاظ والتأثيرات العربية .

وقد زار ابن بطوطة بعض هذه الإمارات العربية فى عام 1333م ودهش لما كانت علية مدن كلوه. ، وممبسة ، ومالندى، وبمبا، وزنجبار، ومقديشيو من تتظيم ورخاء وحضارة .

كما أشاد الرحالة الأوروبيون الذين وفدوا لهذه الجهات بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح بما لمسوه من حضارة فى هذه الجهات ، فشهد فاسكودا جاما بما وجده فى موزمبيق وغيرها مدن أفريقيا الشرقية من تقدم وتحضر ووصف الحريرية ومنازلهم المؤثثة بالأثاث الفاخر .

كما شهد دورات بربوسا (Durate Barbosa) نفس الشهادة عند زيارته لكلوه، وممبسة ث ومالندى . ويعلق كوبلاند على ذلك على الرغم من أنه كاتب استعماري بريطاني بقوله : " إن الأمر لا يدعو للدهشة فإن العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة ، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالك عشر تفوق تلك فى أكسفورد او فى أية مدينة مسيحية أخرى "

2- وبعد فتح مصر مد العرب نشاطهم غربا إلى شمال أفريقيا بل ومنها إلى شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) وهكذا أصبح الشمال الأفريقي يمثل الجناح الغربي للعالم العربي .

٣- وكان لعرب الأندلس والمغرب نشاط كبير فى غرب أفريقيا ، وترتب على ذلك أنهم توغلوا فى داخل القارة ونشروا الإسلام فى أقاليم السودان بمعناه الجغرافى الواسع ، وأدى لظهور إمبراطوريات إسلامية عظيمة لها حضارتها وتاريخها ونظامها فى الحكم والإدارة ، وقد استمرت هذه الإمبراطوريات حتى بداية عهد أفريقيا بالاستعمار الأوروبي مثل إمبراطورية مالى ث وسنغاى ، وغانا .

٤- وقد كانت قوافل التجارة ، وقوافل الحجاج تخترق القارة من شمالها إلى داخل القارة ومن غربها إلى الشرق فى الطريف صوب الحجاز.

5- ومن الرحالة العرب الذين قاموا بجولات فى افريقيا _ الرحالة المغريبي الحسن بن الوازن الذى اشتهر باسم (ليو الأفريقي)، وقد زار عده مناطق فى غرب أفريقيا، فزار مملكة مالي، وسنغاى ، وبورنو، وبلاد الهوسا بشمال نيجيريا٠

ونشرت رحالانه ومشاهداته فى كتاب باسم (تاريخ وصف أفريقيا) ، وقد ترجم هذا الكتاب لعدة لغات.

ويقول بوفيل: (Bovill) الذى ألف كتاباً هاماً عن تاريخ غرب أفريقيا.

" قبل قدوم الحرب إلى شمال وغرب أفريقيا لم يكن يعرف الكثير عن أفريقيا جنوبى بلاد المغرب، فنحن ندين بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لهذه الجهات إلى فئة قليلة من المؤلفبين والرحالة العرب من أمثال المسعودى، و ابن حوقل، والبكرى، والإدريسى، وياقوت ، والعمرى، وابن بطوطة ، وابن خلدون»

٦-أما جهود العرب حين بدأت الكشوف الأوروبية الحديثة فتتمثل فى الدور الذى لعبوه كرواد ومرشدين للحملات الكشفية .

ورغم أن كثيرين من المستكشفين والكتاب الأوروبيين تجاهلوا عن عمد أو عن غير قصد - ذكر دور هؤلاء العرب فى الكشف عن خبايا القارة _ فلا شك فى أنه لولاهم لما وصل هؤلاء الأوربيون فى الكشف إلى المناطق التى وصلوا إليها، ولما حققوه من النتائج.

وسنشير إلى بعض هؤلاء العرب من أمثال محمد بن حميد البرجبى (تيبوتيب) الذى ساهم مساهمة كبيرة مع الرحالة ستانلى فى كشف نهر الكونغو.

وذلك فيما بعد عند الحديث عن هذه الكشوف الجغرافية.

ثالثًا: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية.

انتشار الإسلام والممالك الإسلامية

دخول الإسلام في أفريقيا :

علاقة العرب بأفريقيا علاقة قديمة ، فقد جاء العرب من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقي لأفريقيا واستقروا في هذه المناطق وأصبحت لهم تجارة زاخرة ،

وكونوا إمارات عربية في شرق أفريقيا ، وإذا علمنا أن المسافة بين زنزبار وعدن لا تتجاوز ٧٠٠,١ ميل وبين زنزبار ومسقط ٢,٢٠٠ ميل تقريباً ، أدركنا الامتداد العربي لهذه الجهات الأفريقية.

وبالإضافة إلى عامل الجوار - فهناك عامل جغرافي متاخي آخر ساهم في قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين في الجزيرة العربية ، وبين سكان السواحل الشرقية الأفريقيا ، حيث أصبح التجار العرب يبدأون رحلتهم في سفتهم الشراعية من الشاطئ العربي في الشتاء يستعينون بقوة الرياح المؤاتية في سفرهم جنوباً صوب الساحل الأفريقي ، وفي الربيع أثناء عودتهم يجدون أيضاً الرياح مؤاتية للاتجاه صوب الوطن الأصلي فيساعدهم ذلك على الانتقال من الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر إلى الشاطئ الغربي والعكس.

ومن الأسباب أيضاً التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم (العمانيون والحضارمة خاصة أنهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب شبه الجزيرة العربية ظهيرها طارد ، فكان طبيعياً أن يتسللوا إلى شرق أفريقيا في مجموعات صغيرة انتشرت في المبدأ في بعض الجزر الساحلية مثل: مافيا وزنزبار وبمبا وفي المراكز الساحلية مثل سفالة ومالندي وكلوة وممبسة ودار السلام.

واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها و أن تندمج في السكان الأصليين.

لا شك أن الاستقرار العربي على الساحل الأفريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية حدث بهدوء ودون اللجوء للقوة أو العنف، وكان الغرض التجاري هو الغالب على هذه الجماعات العربية المهاجرة للسواحل الأفريقية.

ولما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وجهر النبي بالدعوة أعطى للعرب دفعة قوية للخروج من شبه جزيرتهم لنشر الدين الجديد ، ومن الطبيعي أن تكون

المناطق التي حرفوها وتعاملوا مع أهلها من أول المناطق التي الطلق إليها العرب المسلمون وأصبح التجار المسلمون دعاة الإسلام في شرق أفريقيا ، كما سيكون لهم دورهم أيضاً في غرب القارة ، وكانت سلوكهم وأمانتهم ومعاملتهم حسب تعاليم الإسلام - خير مشجع للأفارقة لاعتناق الدين الجديد الذي يدعو للمساواة بين الناس ولا يفرق بينهم إلا على أساس التقوى ، كما يدعو للأمانة ومراعاة الله في الكيل والوزن وتحديد الربح.

أن هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا واستقراراهم وما تبع ذلك من إندماجهم في السكان الأصليين وتزاوجهم معهم ، ترتبت عليه نتائج هامة وعميقة مثل وجود جنس تبدو فيه كثير من الصفات والعادات والتقاليد العربية بالإضافة إلى الصفات والتقاليد الأفريقية، كما أصبحت الإمارات التي كونها المسلمون شرق أفريقيا مزيجاً تجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية وبين أشياء إسلامية ، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية (اللغة السواحلية ولاشك أن الإسلام بتعاليمه ومبادئه كان يمثل مصدر إشعاع قوي ، والمسلمون المهاجرون لشرق أفريقيا ، لم يعمدوا لتغيير أوضاع وتقاليد الجماعات التي استقروا بينها واندمجوا فيها في أفريقيا ونقلوا لهذه الجهات حضارتهم.

أما عن الطرق التي سلكها الإسلام في انتشاره في أفريقيا :

1 – طريق المحيط الهندي : وهو طريق العرب الأساسي من شبه الجزيرة العربية إلى شرق القارة وكما سبقت الإشارة أن العامل الجغرافي وعامل الجوار يسرا هجرة العرب من شبه الجزيرة العربية عبر هذا الطريق إلى شرق القارة.

٢ باب المندب : وهو مدخل طبيعي للمناطق المقابلة له من شرق القارة وقد سلكه العرب قبل الإسلام وبعده إلى داخل القارة، والمحيط الهندي وباب المندب كانا طريقا المسلمين إلى الحبشة القريبة من باب المندب حيث أمر الرسول ﷺ أتباعه بالهجرة إلى الحبشة حين اشتد بهم الأذى ، كما دخل الإسلام عن هذا الطريق إلى الصومال فأصبح دولة إسلامية ، كما امتد إلى كينيا وتنزانيا الحاليتين ، ووصل الإسلام إلى

أعالي الكونغو حيث استطاع حميد بن محمد المرجي الذي اشتهر باسم تبوتيب Tippu tip تكوين دولة عربية كانت عاصمتها كاسونجو ظل يحكمها حتى عام ١٨٩٠ .

3- البحر الأحمر : بعد الإسلام أصبح البحر الأحمر يمثل طريقاً هاماً للحج للمسلمين الأفارقة ، وقامت على الشاطئ الأفريقي لهذا البحر موانى هامة باعتبارها مناطق تجمع الحجاج في طريقهم للأماكن المقدسة الإسلامية بالجزيرة العربية ، وتطورت أهمية البحر الأحمر فقد أصبحت بعض موانيه محطات هامة على الطريق الملاحي الذي يصل المحيط الهندي بعالم البحر المتوسط خاصة بعد شق قناة السويس.

4- شبه جزيرة سيناء : سيناء معبر يربط أسيا بأفريقيا ولعبت شبه جزيرة سيناء دوراً هاماً كطريق الهجرة القبائل العربية إلى شمال وغرب أفريقيا ، ومن أهم الهجرات التي سلكت هذا الطريق هجرة بني هلال وبني سليم ، وقد استقرت بعض القبائل العربية المسلمة في سيناء كما أن بعضها اتخذها معبراً إلى الغرب ، وقد دفعت هذه القبائل العربية أمامها قبائل بربرية إلى الجنوب والغرب كما أن سيناء تعتبر الطريق البري الوحيد الذي يربط بين الجناح الأفريقي والجناح الأسيوي.

5 – مصر كقاعدة للانطلاق الإسلامي في أفريقيا منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخول مصر في حوزة الأمة الإسلامية ومن مصر انطلق المسلمون في اتجاهين هامين :

أ- اتجاه جنوبي إلى بلاد النوبة وسودان وادي النيل وإلى الجنوب الشرقي إلى اريتريا

ب- اتجاه غربي ساحلي إلى برقة وطرابلس والمغرب، وكان تأسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ خطوة هامة في هذا الاتجاه.

6- المغرب: كقاعدة لانطلاق الإسلام في أفريقيا : فمنذ دخول الإسلام المغرب بدأ يتسرب إلى غرب أفريقيا فقد سار عقبة بن نافع الفهري حتى ساحل المحيط ، وسار موسى بن نصير في نفس الطريق، فانفتح الباب للإسلام صوب الغرب وجنوباً إلى

قلب القارة التي أطلق عليها الأوربيون تعبير القارة السمراء وكان هذا أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب وبين أقاليم غرب أفريقيا ، وتتابعت بعد ذلك هجرات البربر ، ولعل من أبرز القبائل التي لعبت دوراً حاسماً في نشر الإسلام في هذه الجهات قبائل الملثمين (الطوارق) خاصة في منطقة السنغال والنيجر.

الممالك الإسلامية :-

دخل في حظيرة الإسلام – العديد من قبائل الصحراء الغربية ، وقامت في السودان الغربي ممالك (إمبراطوريات) إسلامية قوية – فقد انتشر الإسلام في البلاد التي يرويها نهرا السنغال والنيجر.

1 – انتشار الإسلام في السنغال :

بدأ الإسلام ينتشر في بلاد السنغال منذ أن أقبلت عليه قبائل تلك الديار خاصة قبيلة صنهاجة التي انتشر فيها الإسلام منذ أيام عقبة بن نافع فكانت هذه القبائل تنتقل نحو الجنوب ، وينتقل معها الإسلام، وزاد أيام دولة الأدارسة التي قامت عام ١٧٢هـ إذ انضوت ديار الملثمين بزعامة المتونة) وبدأت تنتجه نحو الجنوب ، وساعدها في هذا الاتجاه ضعف دولة (غانا) آنذاك ، كما كان خط الانتشار يتجه نحو الغرب ، حيث كانت عدة ممالك في المنطقة أشهرها : مملكة (بامبوك) ومملكة (التكرور) وهذه الأخيرة اعتنق ملكها الإسلام حوالي عام ١٤١٦هـ.

وانطلقت دولة المرابطين من جزيرة عند مصب نهر السنغال ، وهاجمت القبائل المجاورة ، وأرغمتهم على الإسلام، وتوسعت الدولة حتى قضت على دولة غانا ، ونشرت الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية ، ومن هذه القبائل الفولاني التي تحولت إلى الإسلام حوالي عام ٤٦٩ هـ في منطقة السنغال.

ومن أوائل القرن السابع الهجري وحتى القرن الحادي عشر الهجري كانت أرض السنغال ضمن مملكة مالي الإسلامية ، وإن كانت قبيلة "التوكلور" هي صاحبة النفوذ في منطقة السنغال تحت إشراف مملكة مالي حتى عام ٦٣٩ هـ ، حيث حكم

الفولانيون الذين جاءوا من كانياغا) حتى عام ٧٥١ هـ ، وتلاهم شعب الولوف الذي استمر حكمه حتى القرن التاسع حيث رجع التوكلور إلى الحكم وقوى مركزهم إذ كانت مملكة مالي آخذة بالضعف، وكانت هذه الحكومة كلها تقوم تحت إشرافها ، وفي عام ١١٩٠ هـ ، (١٧٧٥م) أسس الفولاني حكومة اتسعت رقعتها ، وظهر عام ١٢٥٤ هـ (١٢٣٨م) الحاج عمر الفولاني فحاول التوجه نحو الغرب ولكنه اصطدم بالفرنسيين ، وتمكنوا من القضاء على سلطانه عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ، وإن استمر حكم أبنائه حتى عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م) حيث دخل الفرنسيون البلاد ولما انتهت إمبراطورية غانا الإسلامية قامت على آثارها إمبراطورية أخرى هي دولة مالي التي ساعدت على نشر الإسلام وحضارته ، وذهب ملوكها إلى بيت الله الحرام وسط مظاهرة كبيرة ، وطافوا ببلاد إسلامية في رحلتهم حاملين معهم الإسلام في كل مكان حلوا به، ولا ننسى موكب منسي موسى (١٣٠٧ – ١٣٣٢م) ذلك الموكب الذي مر على مصر عام ١٣٢٤م ، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر ، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوباً ، لكن انتهت هذه الدولة الإسلامية لتقوم على أنقاضها دولة أخرى هي دولة صنغاء والتي حملت أيضاً لواء الإسلام وتوسعت جنوباً ، ولولا الغزو المغربي لها في أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير في نشر الإسلام في بلاد الزنوج ، وبعد انتشار الإسلام في هذه الجهات بدأت قبائل الفولاني تقوم بدور كبير في نشر الدين الحنيف ، وصار دور الفولاني لا يقل أهمية عن دور الممالك الإسلامية السابقة ، واختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب ، وانقسموا شيعاً وأحزاباً ، فيرى ديبويى (Dubois) أن القولاني من البرير وأنهم الحدروا من منطقة أدرار شمال ديبويي السنغال ، واندفعوا إلى السودان الغربي بعد طرد المسلمين من الأندلس ، واشتغلوا بالزراعة والرعي.

أن الفولاني قد انتشروا بالتدريج في السودان المغربي وأعالي السنغال خلال ازدهار إمبراطورية غانا ، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا في نهاية القرن

الثالث عشر الميلادي ، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودي عام ١٨٠٤.

ومهما اختلفت الآراء حول أصل الشعب الفولاني فإن الذي يهمنا هو أن هذا الشعب ، بعد تفكك دولة صنغي ساد منطقة السودان الغربي فترة من الفوضى استمرت حوالي قرنين من الزمان تعرض فيها السودان لكثير من ألوان الاضطهاد حتى نهض الفولاني بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر استطاعت إحدى إمارات الهوسا ، وتدعي إمارة جوبير ، أن تنتزع السيادة من إمارة زمفرا ، وصارعت إمارات أخرى مثل كيبي ، وكاتسينا وكانم وامتدت جيوشها حتى دولة برنو ورغم كل هذا التوسع لم تستطع أن تحقق الوحدة السياسية الإمارات الهوسا لأن كل إمراة تحاول السيادة على غيرها وكل ما فعلته إمارة جويبر هو السيطرة إلى حين على الإمارات الأخرى.

إن الصراع بين إمارات بلاد الهوسا لم يساعد إلا على التفرقة وعدم الاستقرار، وعدم التركيز على النواحي الثقافية أو الدينية ، فصار الدين الإسلامي غريباً بين السكان ، واختلطت العادات الوثنية بالتقاليد الإسلامية ، وصار الحكام يحملون لقب المسلمين شكلاً دون فهم واع لأصول هذا الدين وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده، وصارت إمارة جوبير هي التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية الكبرى التي غيرت مجرى حياة السكان، وأعادت للدين الإسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة ، وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودي.

إعلان الجهاد وبداية تأسيس الدولة الإسلامية :-

كانت الهجرة إلى مدينة جودو بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ الشيخ معه الأنصار والأتباع إلى أطراف الصحراء ، وهناك أقروا له بالطاعة والولاء ، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة ، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده.

كانت هذه البيعة بداية الجهاد، وإيذاناً بتأسيس الخلافة الإسلامية ، ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد ، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا ، وأصدر الشيخ وثيقة أهل السودان التي صارت إعلاناً رسمياً للجهاد ، حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد ، وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً ، وأن الهجرة من بلاد الكفار ولجية إجماعاً ، وأن الجهاد واجب إجماعاً ، وأن قال البغاة واجب إجماعاً.

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل إلى إخوانه الأمراء في كاتسينا ، وكانم ، ودوراً يطلب منهم يد المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها ، وصار فوق احتماله القضاء على خطورتها.

تزعم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان ، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ، ولم يجد الشيخ بدأ من إعلان الجهاد في سبيل الله ، فلبي تلاميذه النداء لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس تنتهي ، بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير ، فكانوا له مؤيدين ، تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير إثر قرار حاكمها بتأديب الشيخ عثمان ، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح ، وبعد أن أغار حاكم جوبير على قرى المسلمين وممتلكات الموحدين.

وفي الرابع من يونيه عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودي الذي أخلى مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جويبر ، واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو ، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات البغي والعدوان ودارت عليها الدائرة ، فهرب من وجد سبيلاً لذلك وسقط في ساحة المعركة الكثير ، وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد، لكن النصر لم يكن نهائياً لأن قوات المشركين عادت ، بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ ، وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته، ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها المسلمون في البداية ، وراح منهم أكثر من ألف قتيل ولكنهم صمدوا للهجوم.

استمرت الحرب سجالاً بين الطرفين دون تفوق على الآخر ، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيبي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد، وتوالي سقوط إمارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفاً للشيخ وأتباعه حتى تحقق النصر المبين ، ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالاوا في ١٨٠٨ ، وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه ، وانتهت مقاومة الوثنيين ، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا، وتوافدت القبائل زرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام والانضمام إلى حلف المسلمين ، وتوسعت إمبراطورية الفولاني ، وتكونت إمارة جديدة ، وأعطى الشيخ أعلاماً لأتباعه الجهاد في مختلف المناطق ، فتوسعت رقعة الدولة ، ودخل الناس تحت راية الجهاد ، وانتقل الشيخ إلى مدينة سفاوا عام ١٨٠٩ ، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو. وعادت المنطقة إلى حكم المسلمين ، ولأول مرة تشكلت وحدة سياسية كبرى أطلق عليها إمبراطورية الفولاني ، واختلفت التفسيرات حول هذا الجهاد فمنهم من رأى فيه صراعاً سياسياً بين الهوسا والفولاني ، استخدم الفولاني عامل الدين كهدف ، أو مناورة عسكرية من أجل تحقيق أهدافهم للسيطرة الفولانية على بلاد الهوسا ، أما العالم النيجيري عبد الله سميث فيرى في الحركة أكثر من محاولة لمجموعة من الرجال المحرومين من أجل السيطرة السياسية لصالحهم، بل هي حركة فكرية تهدف إلى خلق مجتمع مثالي تسوده الشريعة الغراء.

وحاول أعداء الشيخ تفسير الجهاد على أنه جهاد يخفي وراءه أطماعاً سياسية في ثوب الإصلاح الديني ، بل ذهب فريق آخر إلى أن هذه الثورة قد خططت من أجل مساعدة الفولاني للسيطرة على أمور البلاد. لكن مهما اختلفت الآراء حول أسس الجهاد فإن الجميع يتفق على أن الحركة شمولية ارتكزت أساساً على الناحية الدينية، وأن الشيخ عثمان نفسه حدد الغرض من الجهاد في وثيقة أهل السودان وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام المشرع ، وقتال الملك الكافر الذي لا يقول "لا إله إلا الله .

وقامت دولة الفولاني على نظام الخلافة الإسلامية وصار الخليفة يشرف على كل إمارات الدولة التي أحيت الخلافة الإسلامية التي كانت أيام مجد العباسيين ، وتأصلت جذور الدعوة الإسلامية فنمت وترعرعت وأتت أكلها ، وتمسك المسلمون بالشريعة الغراء وساد الأمن الذي كانت تحكم به المنطقة ، وازدهرت الحضارة الإسلامية في كل أرجاء الإمبراطورية.

وفي عام ١٨١٢ اقتصر دور الشيخ على التأليف والوعظ والإرشاد بعد أن قسم الإمبراطورية إلى قسمين : قسم شرقي تحت إشراف ابنه محمد بلو ، والآخر غربي تحت إشراف أخيه عبد الله فودي، وكرس الشيخ الجزء الباقي من حياته في التأمل والدراسة في مدينة سيفاوا (Sifawa) حتى والقاء الأجل المحتوم في عام ١٨١٧ بعد أن أرسى قواعد دولة إسلامية ، استقرت فيها الخلافة ، وحكم أبناؤه من بعده مدة قرن من الزمان حتى سقوط هذه الخلافة في أيدي البريطانيين في عام ١٩٠٣.

لقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دوراً ضد الاستعمار الأوربي الذي تكالب على مناطق الدولة الإسلامية ابتداء من الربع الأخير للقرن التاسع عشر ، وسوف نستعرض بشيء من التفصيل قصة صراع هذه الدولة الإسلامية ضد الجيوش البريطانية التي حاولت القضاء على هذه الحضارة الإسلامية الزاهرة، لكن رغم سقوط الدولة عسكرياً إلا أن الأسس التي وضعوها ، والنظم الإسلامية التي ساروا عليها أدهشت الأوربيين وجعلتهم عاجزين عن إبدال تلك الحضارة الراسخة بنظم

جاءوا بها ، فاضطروا للإبقاء عليها ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المسلمين في تلك الدولة الإسلامية ، فعاشت حضارتهم وازدادت إزدهاراً.

في القرن السابع قبل الهجرة قامت إمبراطورية (غانا) في منطقة مالي اليوم ، أسستها جماعة بيضاء جاءت من الشرق أو من الشمال وغدت مع الزمن سوداء ، وهي التي عرفت فيما بعد باسم (الفولانيين) وكان مقرها مدينة (كومبي (صالح) التي تقع بين نهري النيجر والسنغال ، في منطقة (أوكار) وسيطرت على جماعة (السوننكي) أصحاب النفوذ هناك ، واعتمدت في حياتها على الزراعة والتجارة ، وفي القرن الهجري الثاني طردت جماعة (السوننكي) الفولانيين نحو الغرب ، وحكمت (غانا) حتى جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري عام ٤٩٦ هـ فانتشر فيها الإسلام ، وكانت من قبل تدين بالوثنية.

تمكنت جماعة السوننكي أن توسع نفوذها وأن تسيطر على مدينة (أود خشت) حاضرة قبيلة (المتونة) إحدى فروع قبيلة (صنهاجة) والتي كانت فيها حكومة بربرية شملت أجزاء واسعة من موريتانيا ، والسنغال ، وغينيا ، ومالي دول العصر الحديث ، وكانت المنطقة بين الممالك تسيطر إحداها على جميعها عندما تزداد قوتها ، ولا تقضي عليها ، وإنما تكتفي بفرض الجزية ، فإذا حدث أن قويت مملكة أخرى عادت وسيطرت على غيرها، وأصبحت الحكومة بالأمس حاكمة اليوم. وقد تعود دولة منها للنهوض ثانية مادام لم يقض عليها ، ولما كانت كل مملكة تسيطر على عدة ممالك لذا فقد عرفت باسم "إمبراطوريات.

٢ ـ مملكة غانا :

وكانت تشغل الرقعة من الأراضي بغرب أفريقيا التي تقع عقد الطرف الجنوبي لطريق القوافل عبر الصحراء الكبرى الممتدة من سجلماسه في بلاد المغرب ماراً بتغازا التي اشتهرت بمناجم الملح. واشتهرت غانا بالذهب ويوجد بمدينة غانا العاصمة نحو إثنا عشر مسجداً ، وأنه عاش بغانا كثير من العلماء ورجال الدين

والأدب ، وطلاب العلم وكانت العربية لغة التعامل ليس بين المسلمين فحسب بل وفي جميع أنحاء الإمبراطورية ، وحاضرة غانا هي كومبي.

وقد بدأ الضعف يدب في مملكة غانا منذ عام ١٣٠٣م – حتى استطاع جيش أحد الأقاليم التابعة لها - وهو أقليم صوصو أن يهاجم العاصمة واستولى عليها وضربها حوالي عام ١٣٤٠م – فاضطر مسلمو خانا للقرار إلى (ولاته) شمال كومبي وأصبح هذا المكان الجديد مركزاً للحياة الإسلامية في الصحراء الكبرى . وقد انتشر الإسلام قليلاً في إمبراطورية غانا قبل قدوم المرابطين بل ذكرت بعض الروايات أن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٣٣٣ هـ ، كما اعتنقه أحد ملوك التكرور عام ٤٣٢ هـ ، ، وأصبح للمسلمين في قاعدة غانا ضاحية خاصة تعادل العاصمة أو تشمل تصفها وفيها اثنا عشر مسجداً ، ولهم حرية في الدولة.

كان القتال مستمراً . بين إمبراطورية غانا والملثمين في الشمال بزعامة قبيلة (لمتونة) والذين كانت قاعدتهم مدينة (أودغشت) وتمكنت غانا من إحراز النصر على الملثمين الأمر الذي جعل (المتونة) تتخلى عن الزعامة لأختها (جدالة) التي استطاعت أن توقف زحف إمبراطورية غانا نحو الشمال ، ثم تأسست جماعة المرابطين الأساسية من قبيلة (جدالة) عندما جاء عبد الله بن ياسين إليهم ، وعندما قوى أمرهم تمكنوا من استعادة مدينة (أودغشت) عام ٤٤٦ هـ من غانا ، وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام ، إلا أن زعيمهم (يحيى بن إبراهيم الجدالي) قد استشهد في المعركة التي فتحت إثرها مدينة الودهشت) وتولى بعده زعامة المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني) ابن عمه وزعيم قبيلة (المتونة) وتمكن من دخول قاعدة إمبراطورية غانا مدينة (كومبي (صالح) وكانت غانا قد ضعف أمرها ، وتفككت وذلك عام ٤٦٩ هـ ، وفرض اللمتوني الإسلام على سكان غانا.

ثم ضعف أمر المرابطين بعد وفاة أبو بكر بن عمر اللمتوني) عام ٤٨٠ هـ ، فعاد للسوننكي قوتهم فاستقلوا وأعلنوا عن ارتباطهم بالدولة العباسية ، ثم ساد الجفاف المنطقة وارتحلت عدة قبائل نحو الجنوب فانهارت إمبراطورية غانا وقامت مكانها

إمبراطورية (الصوصو) وكان لارتحال القبائل نحو الجنوب أثر في تصق الإسلام نحو خليج فانا.

٣- مملكة مالي :

منذ أواسط القرن الحادي عشر كان الإسلام قد أخذ ينتشر بين أفراد الأسرة الحاكمة في مالي وقد اعتنق ملك مالي الإسلام في عام ١٠٥٠م ، وأدى فريضة الحج وتبعه خلفاؤه الواحد تلو الأخر ، ومنذ عام ١٢٣٥ ، بدأ نجم مالي يظهر ، ضمت إليها عدة أقاليم مجاورة. فقد ضمت إقليم مالي ، وصوصو ، وإقليم غانا ، وبلاد تكرور – وكانت هذه الأقاليم ممالك مستقلة لكنها اندمجت في مملكة واحدة ، وأصبحت مالي إمبراطورية إسلامية ضخمة بغرب القارة الأفريقية .

لم تمر خمسون سنة على غزو سوسو لغانا حتى عادت التنظيمات السياسية التي كانت قائمة في إمبراطورية غانا إلى سابق عهدها بل ازدادت اتساعاً وقوة بإضافة أقاليم جديدة عن طريق قيام الأسرة الحاكمة ، وهي من قبائل ماندي Mandi وتعتبر أسرة Sundiata مؤسسة دولة مالي ، وإن كانت قد فعلت ذلك بأسلوب عسكري فإنها في نفس الوقت أبقت على النظام السياسي القائم : بمعنى أن هزيمة غانا في ميدان القتال لم تؤد إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية أو إلى تعديل في التركيب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي للبلاد ، فقد حافظت إمبراطورية مالي على تمتع الشعب بحقوقه وواجباته السياسية ، وعلى قيامه بواجباته وإن تكن قد قضت على الأسرة الحاكمة منعاً لوجود منافسة لها على دست الحكم.

وقد حدثت منازعات داخلية في مالي نتيجة تتابع ثلاثة حكام على الحكم من نفس الأسرة في عشرين سنة ، ثم قيام أحد المماليك بانقلاب ، ثم تنصيب نفسه ملكاً على مالي ، وقد أدى ذلك إلى حرب أهلية لمدة تسعة أشهر ومنازعات على الحكم ، ولكنها لم تؤثر في ولاء رجل الشارع للسلطة الحاكمة ، فقد بقى التركيب المركزي للحكم قوياً بفضل اعتناق الدولة للإسلام.

والواقع أن إمبراطورية مالي كانت أصلاً دويلة صغيرة تسمى كان جايا Kangaba ويسكنها الماندنجو Mandingo من قبائل المالكي Malinke وفي عام ١٣٣٥ قام الملك سندياته Sundiata بضم إمبراطورية سوسو في الشمال إليه ، ثم هزم إمبراطورية غانا ، وقد قامت إمبراطورية مالي الإسلامية على مركزين رئيسيين هما : نياني Niane و Kangaba ثم امتدت إلى تومبكتو Timbuktu وجين Jenne وما حلت سنة ١٤٠٠٠ حتى كانت قوافل التجارة تعبر القسم الأوسط من الصحراء الغربية ، وكانت القافلة الواحدة تتكون من أكثر من ١٣ ألف جمل ، ومن ثم زادت ثروة حكام مالي حتى أصبحت أسطورية ، وخاصة الإمبراطور مانس موسى – Mansa Musa الذي قام بزيارة بيت الله الحرام في عام ١٣٣٤ ، وقد صحب معه آلافاً من رعاياه وكمية كبيرة من الذهب وزعها على الفقراء ، وأحضر مانس موسى Mansa Musa من مكة ومن الدول التي مر بها الفنيين من رجال العمارة ، كما أحضر عدداً من العلماء ، وقد ساعد الأولون في بناء مساجد تومباكتو Timbuktu وقصورها وغيرها من المدن وأنشأ العلماء المسلمون جامعة سان كوري (Sankore) في تومباكتو.

وبعد موت مانس موسى Mansa Musa بدأ نجم الدولة في الأقول ، وما أن حل القرن الخامس عشر حتى فقدت جميع أقاليمها الشرقية بما في ذلك تومبا كتو وجين اللتان انضمتا لإمبراطورية سونغهاي التي حافظت على هاتين المدينتين الكبيرتين ، وعلى ازدهار العلم في جامعة سان كوري تمكن (ماري جاطه) عام ٦٣٣ هـ أن يؤسس جيشاً ، وأن ينتصر على الصوصو ، وأن يدخل عاصمة غانا القديمة ، وأن يزيل ما بقى منها ، ولكنه عطف على المسلمون الذين فروا منها إلى الشمال في ولايته عندما هاجمهم الصوصو.

ان (ماري (جامه هو اين ناري) (قامغان الذي عرف بالإصلاح والعمل على نشر الإسلام ، والذي قتله الصوصو ، وقد نقل (ماري) جاطه) عاصمته إلى مدينة مالي التي أسسها ، والتي تقع اليوم في غينيا قرب الحدود مع دولة مالي ، وقد

توسعت هذه المملكة كثيراً حتى شملت أكثر أجزاء أفريقيا الغربية ، واستمر حكمها حتى عام ٨٩٤هـ (١٤٨٨م) وقد ضعف أمرها أمام هجمات الطوارق في الشمال واستيلائهم على مدينة (توميكوتو) وأعمال الغزو التي تقوم بها قبائل (الوش) الوثنية في الجنوب ، وهجمات الفولانيين والتكارنة من الغرب ، ثم استقلال مملكة (صنغاي) على نهر النيجر ، وتوسعها حتى قضت على مملكة مالي إلا أن الماليين قد حاولوا استعادة نفوذهم ضد (صنغاي) فاستنجدوا بالعثمانيين عام ٨٨٦هـ (١٤٨٠م) وطلبوا المساعدة من البرتغاليين فساعدوهم ضد الفولانيين وأجلوهم عن الأجزاء الغربية ، وقاموا بثورة عام ٩٤٠هـ ، ضد صنغاي غير أنهم فشلوا وقمعت ثورتهم ، ثم استطاع السلطان (محمد (الثالث أن يستعيد بعض أملاكه ، ولكنه هزم في النهاية عام ١٠٠٠هـ. (١٥٩١م) أمام السعديين في مراكش، والذين دخلوا مدينة (توميوكتر) ثم عاد لدولة مالي أهميتها عام ١٠٨١هـ (١٦٧٠م) ثم تفرق أمراء الأسرة الواحدة واقتسموا السلطة، واستقر آخرهم في مدينة (باماكو) ومن الأسر التي حكمت مملكة مالي أسرة (كيتا) وأسرة (تراورة).

ومن أشهر حكام مالي السلطان منس موسى ، وقد ذاع صيته في العالم الإسلامي - اذ ارتبط اسمه برحلة الحج الطويلة التي قام بها إلى بيت الله الحرام عام ٧٢١ هـ / ١٣٢٤م في ركب قيل إنه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج (فمر بـــ دولته) ، و(توات) و (سرته) على شاطئ البحر المتوسط في برقة واتجه منها ساحلاً إلى أن وصل إلى القاهرة - وذلك في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد حسن قلاوون وقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف والإسراف في مصر ، وكانت معه كميات كبيرة من الذهب الخام - حتى قيل أنه لم يدع أميراً من أمراء المماليك في مصر ، ولا رب وظيفة سلطانية إلا وصله بحمل من الذهب ، كما فاض في هباته على الفقراء في الأراضي الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل أن الذهب انخفض انخفاضاً ملحوظاً لكثرة ما أنفقه.

ومن طريف ما ذكر عن بعثة الحج هذه أن سلطان مالي في طريقه إلى الحج بعث برسالة إلى سلطان المغرب يخبره فيها أن موكبه سيمر من الطريق المحاذي بساحل البحر المتوسط ، فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء ، ولبست المملكة حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب الذي أحاطت به مظاهر الأبهة والبذخ وحمل معه أحمالاً من الهدايا قدمت إلى الحضرة بفاس وتركت أثارها في نفوس المغاربة الذين كانوا ينظرون إلى القادمين نظرة الاحترام والتقدير : وعندما انطلق الموكب من مالي إلى تلمسان صحبته كوكبة من الخيالة المغاربة الذين كانوا يحملون أوامر بمضاعفة مظاهر الحفاوة عند المرور ببجاية وتخوم تونس ، ووصل الموكب مصر حيث وجد الملك المالي – عاهل الجركسي يناتحه في موضوع إقامة صلات تجارية وسياسية بين البلدين. ولم تكن مظاهر الكرم - الذي صاحب رحلة العاهل المالي للحج مقصورة على القاهرة – فقد أنفق المال بسعة في كل مكان ذهب إليه ، وحدث ذلك أيضاً في أثناء زيارته المدينة المنورة ومكة المكرمة وغيرهما.

وقد ذكر المؤرخون أن منسا موسى - لما رجع ثانية إلى القاهرة قد أنفق كل ماله ، ومع ذلك فقد ظل متمسكاً بجميع مظاهر الأبهة – واضطر للاقتراض من أحد تجار الإسكندرية ، وقد صحب هذا التاجر هو وولده إلى مالي ليسترد دينه ، وقد توفى هذا التاجر الثري في مسوفة ، ودفع منسا موسى ما كان عليه إلى ولده الذي انصرف عائداً إلى مصر.

وقد مات منسا موسى عام ١٣٣٢ بعد حكم دام خمساً وعشرين سنة ، وبعد موته بدأ الإنقسام يدب في عظم الإمبراطورية فقد تولى أمرها خلفاء تعوزهم القدرة.

وأن تاريخ منطقة تشاد يكاد يكون مجهولاً حتى المدة التي شع فيها نور الإسلام عن طريق التجارة والدعوة وانتقال القبائل من الشمال إلى الجنوب ، ونزوح بعض الرجالات إثر الأحداث التي تحل بالعالم الإسلامي مثل : سقوط بغداد وخروج

المسلمين من الأندلس وغير ذلك ، ومن ثم تأسست بعض الممالك الإسلامية في تلك الديار أهمها :-

٤ – مملكة كانم :

وتأسست في القرن الثاني الهجري على أيدي جماعة قادمين من الشمال وكان مركز هذه المملكة شمال شرقي بحيرة تشاد ، وحكم أسرة سيف (١٨٣ – ١٢٢٥هـ) كانت على الوثنية مدة من الزمن تعد غامضة في أكثر من مراحلها ثم دخل إليها الإسلام في أواخر القرن الخامس ، وأول الأمراء الذين اعتنقوا الإسلام يدعى (أوم) وحكم من ٤٧٨ – ٤٨٩) هـ) ولقب الملوك بعده (ماي) . وانتشر الإسلام في أيامه كثيراً ، وتوسعت مملكتهم حتى امتدت من النيجر عرباً إلى (وادي) شرقاً ، وشملت مناطق من الصحراء ، وشملت أجزاء من المناطق السودانية في الجنوب ، وكان هذا التوسع بمساعدة حكام تونس من الحفصيين ، ووصلت إلى الأوج أيام عبد الجليل سلما) و (جونوما (الثاني).

ومن إمبراطوريات غرب أفريقيا الإسلامية - إمبراطورية كاتم وبرونو وقد شملت إمبراطورية كانم في أوج مجدها رقعة واسعة في غرب القارة تمتد من نهر النيجر غرباً إلى النيل شرقاً ، وقد استمرت إمبراطورية كانم قائمة فترة امتدت من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الثالث عشر ، وبدأ الضعف بعد ذلك يدب في أوصالها فأصبحت جزءاً من برنو بعد أن كانت برنو خاضعة لها.

وقد اعتنق حكام كانم الإسلام منذ أوائل القرن الحادي عشر مما أكسب دولتهم أهمية كبيرة وفي عام (٧٨٩) هـ (١٣٨٧م) عمد قوم (البلالا) وهم لخلاط من العرب والتشاديين إلى إنهاء حكم هذه المملكة ، وبقيت الحرب قائمة بين الطرفين حتى أوائل القرن التاسع ، قتل في خلالها أربعة ملوك من دولة كانم ، وأخيراً هرب حكامها إلى (بورنو) غرب بحيرة تشاد ، وهو الإقليم الذي انتزعوه من شعب (الصاو) وأسسوا هنالك مملكة جديدة ، ثم استطاع (طي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ – ٩١٠ هـ) أن يهاجم (البلالا) وأن يعود إلى كانم ، وابتدأ الازدهار لهذه المملكة مرة

أخرى في أيـــام الملك الإدريس) (الثالث) الذي يعرف باسم (إدريس) (الونـة) وقد حكم (١٥٧١ – ١٥٩٦م) ووسع حدود مملكته.

وأخيراً تدهور الحكم ، وفي هذه الأثنـاء هاجمت قبائل الفولاني بزعامـة (عثمـان دانفديو) المنطقـة ، واحتلت منطقـة (بورنـو) وأصـبحت قبائـل (الهاوسـا) كلهـا تحـت حكمـه وفـرض الإسـلام علـى القبائـل الوثنيـة. استدعى أهـل كـائم الشـيخ محمد الأمـين الكانمي عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠م) فتولى الحكم ، وأنهى حكم أسرة (سيف) ووقف فـي وجه قبائل الفولاني ، وصد هجومهم ، وبنى لـه عاصـمة فـي مدينـة (كوكـا) وسـار فـي البلاد سيرة حميدة ، إلا أن الضـعف عـاد بعده ، وتمكن الأمير (رابـح) مـولى الزبير باشا أن يدخل البلاد ، كما استطاع دخول منطقـة (بورنـو) وبقـى فـي الحكم حتـى جـاء الفرنسيون عام ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م).

شرق أفريقيا الإسلامي

أ) الحبشة :

كانـت للعـرب معرفـة بـبلاد الحبشـة قبـل الإسـلام، فلمـا ظهـر الإسـلام فـي شـبه الجزيرة العربية – وجهر النبي الله بالدعوة وجد فيها بعض العرب هدماً لما ألفوه فـي معتقداتهم وخروجاً عما اعتـادوا أن يعبدوه، كمـا وجـد بعض أغنيـاء قـريش فـي الـدين الجديد تقويضاً لسلطانهم ونهياً عن ملذاتهم التي اعتادوها – فناصبوا الرسول العداء ، ورأوا أن يوجهـوا إضـطهادهم إلـى أنصـاره عامـة ، وإلـى المستضـعفين مـنهم خاصة لاسيما مواليهم الذين وجدوا في الدعوة الجديدة مخرجاً لهم من ذل الأسر.

ولما رأى رسول الله مـا نـزل بـالمؤمنين بدعوتـه من إيذاء ، رق قلبـه الأنصـاره ، وخاف عليهم أن يقتنوا ، فأشـار عليهم أن يفروا بإيمـانهم ويهـاجروا إلـى بـلاد الحبشـة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهـي أرض صـدق ، حتـى يجعل الله لهم مخرجـاً ممـا هم فيه وقد هاجر إلى الحبشة عشرة رجال ، وأربع نسوة ثم زاد المهاجرون للحبشـة ، فبلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسبع عشرة امرأة بالإضـافة إلـى الصـبية ، وكلهم

من بطون قريش ، وكان فيهم عثمان بن عفان ، وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص.

فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا ، وأطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً - استقروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين إلى النجاشي ليخرجهم من بلاده - فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، ومعهم الهدايا - فلما وصلا إلى بلاد النجاشي طلبا مقابلته ، ثم قالا له "أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان من السفهاء، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت – وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من أبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى منهم عيناً ، وأعلم بما عانوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فطلب النجاشي هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم فتقدم جعفر بن أبي طالب ووصف له حالة العرب قبل الإسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ﷺ ترمي إلى ترك الأوثان ، وعبادة الله والتخلق بمكارم الأخلاق ، فقال له النجاشي ، هل معك مما جاء به من الله شيء - فقال جعفر نعم فاقرأه علي – فقرأ جعفر عليه صدراً من سورة مريم ، وفيها حديث عن ميلاد المسيح – فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم - ثم قال النجاشي لمبعوثي "قريش" إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة اتفاقاً . فلا والله لا أسلمهم إليكما. وقد بقى المهاجرون من المسلمين في الحبشة ، وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم وأصبحوا في رغد من العيش ، وقد رجع بعضهم فيما بعد إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة وأقام بعضهم في الحبشة إلى السنة السابقة للهجرة.

واستمرت العلاقات بين الجزيرة العربية والحبشة بعد ذلك ، وأصبح العرب يترددون أكثر عليها، واستقر بعضهم هناك، وقيل أن أول مسلم هاجر إلى الحبشة واستقر بها هو ود بن هشام المخزومي ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب. على أن الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية أدت بعد ذلك إلى زيادة الهجرة. إلى الحبشة والاستقرار بها - فالحبشة بموقعها الجغرافي وخصبها ، واعتدال مناخها وتنوع مواردها – كانت مغرية للراغبين في الهجرة للعمل سواء في الزراعة أو الرعي أو التجارة على أنه على الرغم من أن الصلات بين الأحباش والمسلمين – كما ذكرنا – كانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام - طيبة وودية فقد بدأت بعض الاحتكاكات بين الأحباش والدولة الإسلامية - بعد ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب. في عام ٢٠ هـ أرسل الخليفة سرية من المسلمين في البحر بقيادة علقمة بن مجزر المدلجي لمهاجمة الحبشة – ولا تعطينا المراجع تفسيراً لهذا الصدام الذي وقع الأحباش والعرب - لكن تذكر المراجع أن ميناء جدة تعرض لغارات الأحباش مما اضطر المسلمين ترد هذا العدوان.

وفي عام ٨٣ هـ اضطر المسلمون لاحتلال جزر دهلك القريبة من مصوع وذلك لضمان مراقبة تحرك الأحباش ، وقد وجدت بهذه الجزر نقوش عربية وشواهد قبور ترجع إلى منتصف القرن الثالث الهجري مما يدل على أن العرب المسلمين كان لهم وجود بهذه الجزر حتى هذا التاريخ، ويبدو أن دهلك أصبحت لها أهميتها كمركز مراقبة ، وكمحطة تجارية بين شبه الجزيرة العربية والحبشة.

وتشير إلى أن عدداً من القبائل العربية هاجرت واستقرت في السهول الساحلية المحيطة بأرض الحبشة ، وقد توالت الهجرات لهذه السهول التي كانت في طبيعتها الصحراوية أو شبه الصحراوية شبيهة بما اعتاده العرب في بلادهم.

وبمضي الوقت تحولت المراكز الإسلامية إلى إمارات أو ممالك إسلامية أطلق عليها البعض اسم إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية ، وأطلق عليها المقريزي

ممالك اسم الطراز الإسلامي. ومن الشعوب التي كونت هذه الممالك أو السلطنات البجة ، والأغفار (الدناكل) والصوماليون والجالا.

ومن أهم هذه الممالك والسلطنات - سلطنة أوفات ، وسلطنة عدل ومملكة فطجار ، ومملكة دوارد ، ومملكة بالي ، ومملكة داره ، وسلطنة شوا ، ومملكة هدية ، ومملكة شرخة – وقد امتدت هذه الممالك من ميناء مصوع شمالاً إلى إقليم أوجادين جنوباً ، ومن رأس عورتقواي شرقاً إلى أطراف الهضبة الحبشية عرباً. وإن لم تتوحد هذه الممالك الإسلامية تحت سلطنة إسلامية واحدة – لكن ظهرت واحدة أو أخرى من هذه الممالك كقوة كبرى ، فمثلاً ظهرت مملكة شوا الإسلامية التي بلغ أوج عظمتها في القرن السادس الهجري وقامت مملكة إسلامية وإمارات على حين تحصنت النصرانية في مرتفعات وحدثت حروب بين أصحاب الديانتين كان النصر في أغلب الأحيان ، جانب المسلمين، ولم يبق للأحباش سوى أجزاء بسيطة في أعالي الهضبة.

كان للأحباش اتصال دائم مع ملوك أوربا للعمل سوية ضد المسلمين ، وقد ظهر هذا خلال أوقات متباعدة ، فعند الغزو الصليبي قدم الأحباش المساعدات فأصلح لهم دير خاص في بيت المقدس وحرصت الحبشة على مساعدة الملك النصراني وتحريضه على غزو مصر ، وكان أثر ذلك غزو الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ وأقدمت الحبشة على القيام ببعض الأعمال التخريبية إلى أن تحرك الجيوش المملوكية قد حال دون استمرار أعمال الأحباش.

وعندما فتح المماليك في مصر جزيرة قبرص عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م) اتصل الأحباش بملوك أوربا للعمل ضد المماليك ، وقد تجاوب مع ذلك ملك فرنسا ملك أرغونة وهدد ملك الحبشة المماليك بالقيام بغزو لبلاد العرب والأماكن المقدسة وتحويل مجرى نهر النيل.

واتصلت الحبشة بالبرتغاليين طلائع المستعمرين الذين قدموا من الجنوب بعد. التفاهم حول أفريقيا ، ووعدت البرتغال بتقديم مساعدات للأحباش في قتالهم ضد

المسلمين ، ولكن لم يلبث أو وقع الخلاف بين الفريقين بعد دخول البرتغاليين إلى الحبشة عام ٩٢٨) هـ (١٥٣٤م) إذ حاولوا فرض المذهب الكاثوليكي ، وترك البرتغاليون الحبشة بعد هزائمهم أمام المسلمين بعد ست سنوات.

وفي مطلع القرن العاشر حملت راية الجهاد في شرق الحبشة إمارة عدل ووصل نفوذها إلى حافة الهضبة في الوقت الذي كان العثمانيون يدخلون من بلاد العرب ليوحدوا المسلمين ويقفوا في وجه البرتغاليين وأطماعهم في المنطقة ، إلا أن حكام إمارة عدل قد اضطروا فيما بعد إلى مسالمة الأحباش بعد أن هزموا أمامهم.

ثم حملت إمارة هرر راية الجهاد وأسلمت الشعوب البدوية مثل الدناقل وغيرها وشجع الهرريين وصول العثمانيين إلى المنطقة ووقوفهم في وجه الخلف البرتغالي الحبشي إذ دعموا سلطان هرر أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين وأمدوه بالأسلحة فاستمرت غزواتهم في الحبشة خمسة عشر عاماً ، وكانت النتائج أن دخل سلطان هرر أجزاء من هضبة الحبشة ، وعاد إلى الإسلام عدد من الذين سبق لهم أن تنصروا تحت ضغط الأحباش ، كما بدأت قبائل الجالا الوثنية تدخل في الإسلام ، كما أن هذه القبائل قد استغلت الخلاف الذي حدث بين الأحباش والبرتغاليين فشقت طريقها إلى الهضبة من الجنوب.

وازداد عدد المسلمين في القرن الحادي عشر الهجري ، ودخل التجار الكانميون إلى بلاد الحبشة فأسلم على أيديهم كثيرون ، واتجه المظلومون من الأحباش إلى عدالة الإسلام، وكان المسلمون من الأحباش ذوي مكانة اجتماعية وثقافية وخلقية، معروفين بالجد في العمل والأمانة في المعاملة ، وقد عرف لهم هذا الأحباش حتى الذين كانوا على غير دينهم غير أن بعض المتعصبين من النصارى كثيراً ما كانوا يسيئون إلى المسلمين، ويصرون على إقصائهم عن الوظائف الرسمية ، ومع هذا فقد وجد الإسلام طريقه إلى كثير من الزعماء ، وكان أحد رؤوس من نواب الملك في القرن الثالث عشر مسلماً وهو الرأس علي) وفي عهده تحول نصف أهالي الولايات الوسطى إلى الإسلام.

واهتم المهديون في السودان بالإسلام في الحبشة ، واتخذوا بلدة (القلابات) في شرقي السودان مركزاً للدعوة ، ورغم الإجراءات الصارمة التي اتخذها ملوك الحبشة النصارى ضد المسلمين فقد دخلت قبائل كاملة في الإسلام وكانت من قبل تدين بالنصرانية ، وقد أثار هذا حفيظة الحكام الأقباط فأصدر الملك علم ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) قراراً يجعل التعميد إجبارياً للسكان سواء أكانوا من النصارى أم من المسلمين ، وقد أجبر أكثر من خمسة وخمسين ألفاً من المسلمين على التعميد ، وأخرجت ألوف أخرى من منازلهم، وأبيدت جماعة ثالثة.

إسلام أريتريا :

دخل الإسلام أريتريا مع شعاعه الأول .. حين هاجر إليها المسلمون فارين بدينهم نازلين على نصيحة نبيهم و أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وانتشر الإسلام على أيدي صحابة رسول الله ﷺ مع الفطرة السائدة في المكان وتوالت هجرات المسلمين، ورحلات التجار إلى موانئ أريتريا على شاطئ البحر الأحمر في مواجهة الجزيرة العربية التي عمها الإسلام، وظل الشعب متمسكاً بإسلامه رغم ما تعرض إليه من غزو بحر أكثره. دخل الإسلام في مناطق شمال أريتريا وغربها عن طريق التجار العرب والعلماء الذين استقروا بين ممالك البجة وحول مناجم الذهب في هجر وغيرها منذ القرن التاسع الميلادي.

فعلى أثر تكرر غارات القراصنة على ميناء جدة في عامي ٦٣٠م و ٦٤٠م من عدوليس التي وصلت إدارتها إلى مرحلة الذبول نتيجة الصراع الروماني الفارسي الذي أقحم اليمن وأكسوم في حروب طويلة ، اضطر العرب الأمويون إلى الاستيلاء على جزر دهلك وشاطئ مصنوع وعدوليس في عام ٨٤ الموافق (٧٠٢م) وأقام الأمويون هناك القلاع والحصون وأمنوا طرق التجارة ، فازدهرت البلاد وتشجع العرب على استيطان المنطقة وتعميرها، وأصبحت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب الجزيرة العربية ، المجال الحيوي للجماعات التي خرجت من الجزيرة العربية للتجارة وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة هرباً

من حالات الذعر التي سادت الجزيرة العربية والعالم الإسلامي بسبب حروب الردة ، ثم حروب الأمويين والعباسيين وحروب العباسيين مع العلويين.

وكانت القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع الميلادي فترة تصاهر فيها العرب النازحون مع قبائل البجة التي اكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة ، وعن طريق المصاهرة والتجارة انتشر الإسلام حتى أن المؤرخ الإيطالي كونت روسي يشير إلى قيام ولايات إسلامية عربية مزدهرة في دهلك والشواطئ الأرترية في القرن الثامن الميلادي.

ويعتقد أن قبائل الدناكل في جنوب أريتريا والسمهر في ضواحي مصوع تعد من أقدم سكان إريتريا اعتناقاً للإسلام، كما انتشر الإسلام بين قبائل الساهو التي تسكن في المنطقة الممتدة من خليج زولا إلى. مرتفعات أكلي قوازي في القرن الرابع عشر عن طريق أسر دينية عربية أشهرها أسرة (بيت شيخ (محمود) التي تسكن زولا وتدعي الانتساب إلى الزبير بن العوام ، أما قبائل الساحل والبني عامر فقد انتشر الإسلام بينها ابتداء من القرن العاشر الميلادي، ويذكر تجار البندقية في القرن الخامس عشر قبيلة بيت معلا كقبيلة إسلامية تعيش في سواحل شمال اريتريا، وهو موطنها حتى الآن مع امتدادها إلى منطقة بركة ، ولعل لعائلة (عد شيخ حامد ولد نافعوتاي) تأثير كبير في نشر الإسلام بين قبائل الحباب والبني عامر ، وتنتمي هذه الأسرة إلى أشراف قريش ، وقد قدمت إلى إريتريا عن طريق السودان، ولها حتى الآن زوايا لتعليم الدين في (زفا شيخ) في محافظة الساحل ، كما لها مركز آخر في (امبيرمي) على بعد ١٥ كيلو متراً شمالي مصنوع، وتعمر القرية بأضرحة الأولياء من هذه الأسرة الدينية.

وخلال القرن التاسع عشر تحول عدد من القبائل الناطقة بالتجري والتي كانت تعتنق المسيحية ، إلى الإسلام، ومنها الماريا والمنسع والبلين والبيت جوك والحباب بفروعها الثلاثة (بيت أسقدي ، عد تكليس ، عتماريام) وكانت أسر حاكمة نزحت من هضبة حماسين إلى المرتفعات الشمالية واخضعت لسلطانها قبائل التجري

الكثيرة العدد، كما اعتنقت قبيلة الباريا في وادي القاش الإسلام، وكانت من قبل وثنية ، وكذلك بعض من قبيلة البازا.

ويعود إسلام هذه القبائل إلى جهود السيد محمد عثمان المرغني ، مؤسس الطريقة الختمية الذي أوفده شيخه أحمد بن إدريس من مكة في عام ١٨١٧ وبصحبته السيد محمد على السنوسي ، مؤسس الطريقة السنوسية ، حيث افترقا بعد وصولهما إلى مصر ، فتوجه الأول صوب الجنوب إلى السودان ثم إريتريا ، وعاد بعد أن نشر الإسلام والطريقة الختمية إلى مكة ، مخلفاً عدداً من الأبناء واصلوا بعده جهوده ، بينما توجه الثاني إلى شمال أفريقيا وأسس طريقته هناك. وهناك أسر دينية أخرى أقامت الزوايا لتعليم القرآن والدين في مختلف البقاع الإريترية ، وأشهرها (عد شيخ) في الساحل و (عد سيدنا مصطفى) في بركة ، و(بيت درقي) و (عد معلم في شمال إريتريا وغربها و بيت الشيخ إبراهيم الخليل) في طيعو في تنكانيا وعائلة (كبوري) في الهضبة الإريترية وكانت بالأصل تقيم في جزر دهلك . وهذه كلها بيوتات دينية كانت تتوارث تدريس الدين وتحفيظ القرآن مكرسة جهودها لرسالتها ، وتعيش شظف العيش معتمدة في إعاشة طلابها على هدايا عامة المسلمين وأثريائهم ، وتنتسب إلى العرب بصلة الرحم، وكان يبرز من بينها ومن عامة المسلمين فقهاء ينبغون في العلم واللغة العربية ويتلقون علومهم في زبيد أو المدينة المنورة أو الأزهر، وعرفت قرية زولا بالزوايا لتعليم الدين وقد تخرج منها عدد من الفقهاء.

وقد انتشر الإسلام في الهضبة الإريترية بين قوم عرفوا باحتراف التجارة يطلق عليهم (الجيرية) وهي كلمة أطلقت أيضاً على أماكن وأقوام مختلفة في العصور الوسطى ، فسميت (إيفات) في قلب هضبة (شوا) داخل أثيوبيا بالجبرتة ، كما سميت زيلع في ساحل الصومال بهذا الاسم ، بل أطلق هذا الاسم في بعض الأحيان على عموم مسلمي الحبشة ، وفي الأزهر في القاهرة رواق قديم يعرف برواق الجبرتة ، ويذكر الحميمي في كتابه (سيرة الحبيشة) (١٦٦٥م) أنه التقى بزعيم (آل

كبيري صالح) في أندرته بهضبة التجراي ويقول أن أسرته تقوم في كل بلاد الحبشة بنشر الإسلام وتعليمه.

وهكذا انتشر الإسلام في سواحل إريتريا وأجزائها الشمالية والغربية وفي قسم من هضبتها عن طريق عدوليس وباضع ، وهي الطريق نفسها التي دخلت منها المسيحية من قبل ، ولم تحدث بين أتباع الطائفتين احتكاكات أو حروب دينية ، بل تعايش السكان بما عرف عنهم من تسامح وبما كان بينهم من وحدة الأصول والمصالح التجارية والزراعية والرعوية المشتركة، تعايشوا بسلام وفق شعار (لكم دينكم ولي دين حتى تدخلت قوى أجنبية في القرن السادس عشر – برتغال وأتراك – جرت أهل البلاد إلى صراعات طائفية.

عبر تألفت سبع على أن انتشار الإسلام لم ينحصر في السواحل الإريترية ، بل امتد أريتريا إلى داخل الحبشة حتى ممالك إسلامية عربية عرفت ببلاد الطراز الإسلامي ، ويعزو أولندورف (Ullendroff) في كتبه الأثيوبيون (The Ethiopians) سرعة انتشار الإسلام بين الأقوام العامية الكوشية في سواحل أريتريا ودواخل الحبشة حتى بحيرات عروسي على مقربة من الحدود الكينية الحالية ، يعزو ذلك إلى رغبة هؤلاء القوم في النجاة بأنفسهم من الاسترقاق ، إذ كانت قسوة تجار الرقيق بالغة ، وكان اعتناق الإسلام يمنح هؤلاء أماناً من غارات تجار الرقيق باعتبار أن الإسلام يمنع استرقاق المسلم وأن اعتناق هؤلاء للإسلام كان يشعرهم بالانتماء إلى أخوة عالمية، من دون أن يكلفهم ذلك الانسلاخ من بيئتهم وعاداتهم التي كان دعاة الإسلام يتسامحون إزاءها.

ازدهار إمارة دهلك :

اكتسبت إمارة دهلك أهمية تجارية كبيرة في العصور الوسطى ، واستقل سلطانها عن صاحب اليمن وقد كان من قبل تابعاً له ، إلا ما كان من علاقة المداراة والاسترضاء عن طريق إرسال الهدايا من الرقيق والعسل والشمع. ووسع مملكته حتى شملت جزر باضع ومناطق الساحل الأريتري ، وأجبر القبائل المجاورة على

دفع الضريبة العاملة في باضع (مصوع) وصحب الانتعاش الاقتصادي نوع من الانتعاش الثقافي ، فاستقر فيها العلماء وتأسست فيها زاوية لتعليم الدين واللغة ، وتدل الخطوط الكوفية الجميلة التي وجدت منحوتة بكثرة في الأضرحة والقبور والمساجد والقصور إلى انتعاش حركة الثقافة ، وقد أشار كل من المسعودي وابن حوقل إلى ازدهار التجارة في جزر دهلك وخاصة تجارة الرقيق السيئة الصيت.

ويتحدث سكان دهلك اليوم لهجة (تجري) محرفة تمتزج فيها ألفاظ من اللهجات الدنكلية والعربية والتجرينية ، دلالة على الصلة التاريخية للجزر بالأقاليم المجاورة ،و انتقال السكان واختلاطهم لأغراض التجارة والحروب وا والتعليم ذهبت أعداد من شيراز من بلاد فارس إلى سواحل أفريقية الشرقية وتفرقوا في أنحائها ، كما هاجرت مجموعة من الإحساء في شرقي جزيرة العرب ، واتخذت مقامها هناك.

توغل هؤلاء المسلمون جميعاً على طول الساحل الشرقي لأفريقيا من الفرن الأفريقي في شمال بلاد الصومال وحتى مدينة (سفالة) في بلاد موزمبيق على خط عرض ٢٠ جنوباً ، ولم يتوغلوا إلى الداخل كثيراً ، وكانت مهمتهم تجارية في أغلب أمرها ، وإن كانت التجارة قد يسرت في كثير من الأحيان سبل الاتصال بالسكان ودعوتهم إلى الإسلام.

استطاع هؤلاء المسلمون أن يؤسسوا مراكز تجارية كبيرة من أشهرها (كلوة) و (دار السلام) و (سفالة) وقد زار هذه المراكز الرحالة المسلم ابن بطوطة" ووصفها وصفاً جميلاً ، كما أعجب بهذه المدن البرتغاليون عندما جاءوا مستعمرين نظراً لنظامها ونظافتها.

أسس المسلمون في هذه المناطق إمارات وممالك متعددة ، ولم تكن متحدة فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفة لا تثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين في تلك الجهات، ومن أشهر هذه الممالك مملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع ، وكانت حاضرتها مدينة كلوة في جنوبي تانزانيا اليوم ، وقد استطاعت

هـذه المملكـة أن تنشـر الإسـلام فـي كـل مـا يسـمى اليـوم زامبيـا" وموزمبيـق ، ومالاوي" وبلغت جهودها في هذا السبيل روديسيا.

الصومال :

دخل الإسلام في الصومال منذ أيامه الأولى ، ورغم اختلاف الآراء حول تاريخ دخول الإسلام في الصومال، إلا أن أقرب الأدلة الراجحة إلى الحقيقة ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الإسلام ظهر في الصومال قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة عن طريق الصحابة المهاجرون إلى الحبشة. ظهر الدين الإسلامي في الصومال الذي يحيط به من الشمال الغربي - الحبشة المسيحية ، وفي الغرب جاله الوثنية ، فكان لزاماً على الشعب الصومالي المسلم حمـل راية الدعوة الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي ، ورغم محاربة الأحباش لانتشار الدين الإسلامي إلا أنه يبدو أن فترة قد مضت دون أن تجد الحبشة فرصة لمحاربة انتشار الإسلام ومقاومته بسبب :-

أولاً : : انشغال الحبشة بالصراع الدموي الذي قام به المسيحيين واليهود الذين اغتصبوا عرش الحبشة من سنة ٩٢٥ ١٢٥٥م.

ثانياً : لم يكن للحبشة تنظيم سياسي أو حكومة مركزية قوية تقف في وجه التيار الإسلامي الجارف.

هذا أدى إلى إيجاد فرصة لتأسيس الإمارات الزيلعية السبع) أو دول الطراز الإسلامي التي كانت في صراع مستمر مع الحبشة لفترة طويلة من الزمن ، وهذه الإمارات هي :-

١ – إيفات

٢- دواوا.

3- البيني

4- هديا

5- شرخا

6- يالي

7- درة

وهي عبارة عن سبع محافظات يتولى شئون كل منها حاكم صومالي مستقل ذاتياً . ويرجع الفضل في تأسيس هذه الإمارات إلى المهاجرين العرب. أما الصراع الإسلامي الصومالي مع الحبشة المسيحية فقد استمر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى أن تولى عرش الحبشة "لبنا دنگل Lebna Dengel (١٥٠٨ – ١٥٤٠) ، وقد أثارت أنبازه الاهتمام في أوربا.

وكان مجئ البرتغاليين نذيراً لا يمكن تجاهله ، فسعوا إلى الاستيلاء على السواحل الصومالية حتى يتمكنوا من القضاء على النفوذ الإسلامي والتجارة العربية وبذلك يخلو أمامهم طريق التجارة الشرقية ، وأدرك المسلمون من الصوماليين والدناقلة وغيرهم أن تحالفاً بين الأحباش والبرتغاليين المسيحيين فيه دمارهم وسوف ينتهي الأمر بخضوعهم للاستعمار الأجنبي وتزعم الجهاد ضد هذه القوى المسيحية التي شاركت فيها البرتغال مع الأحباش الزعيم المسلم والإمام الغازي أحمد بن إبراهيم الذي كان لجهاده أثر كبير في نشر الإسلام في شرق القارة ، حيث شهد القرن السادس عشر دخول قبائل البدو في حركة الجهاد الإسلامي.

وقف الإمام أحمد بن إبراهيم أمام غزو الأحباش الذين اندفعوا إلى غزو إمـــارة هرر الإسلامية عام ١٥٢٧ وهزم الأحباش وانتصر عليهم في ١٥٢٩ وواصل غزو الحبشة من الداخل ، وفي ١٥٣١ دخل منطقة شوا وأمهرة واستطاع المسلمون السيطرة على جنوب الحبشة عام ١٥٣٥ فاستنجد الأحباش بالبرتغاليين الذين أرسلوا قوة قوامها يزيد عن أربعمائة جندي من حملة البنادق لمناصرة الأحباش ضد هذا الجهاد الإسلامي ، مما أعطى المعارك طابعاً صليبياً ولكن في عام ١٥٤٠ مات

الإمبراطـور "لبنـا دنقـل" وخلفـه ابنـه الإمبراطـور "جلاديـوس" الـذي انتصـر علـى الصـوماليين في معركة رهيبة بالقرب من بحيرة تانا.

الجـدير بالـذكر أن الأتـراك كـان لهـم دور هـام فـي مسـاندة مسـلمي الصـومال ضد مسيحي الحبشة والبرتغال ، فقد قدم الأتراك المال والأسلحة إلى الصوماليين عند اندلاع الحرب بين الجانبيين وذلك عن طريق حاكم "زبيد" باليمن ، كما كـان شـريف مكة يمدهم بالمساعدات المالية والعسكرية ، وفـي نفس الوقت نجد أن كـلاً من تركيـا والبرتغال كانت تهدف إلى السيطرة على البحر الأحمر والهيمنـة علـى المراكز وفـي ١٥٥٩ شـنت القـوات الصـومالية هجومـاً بالتعـاون مـع هـرر قتـل فيـه "جلاديـوس" وبالرغم من الانتصار فإن الحبشة المسيحية نجت وزال الأمل في إقامة دولة إسلامية فيها وقد انحسر نفوذ الصوماليين في هرر وملحقاتها بالتدرج ا التجاريـة حتـى وقعت الصومال في قبضة الاستعمار الأوربي.

الفصل الثاني

دوافع الاستعمار الأوروبى فى قارة أفريقيا

- تعريف الاستعمار
- الدافع الدينى
- الدافع السياسي
- الدافع الجغرافي
- الدافع الاقتصادى
- الدافع الاستراتيجى
- تجارة الرقيق
- الثورة الصناعية
- الدافع النفسي

تمهيد

إذا كان كشف القارة الإفريقية وإلقاء الضوء عما بداخلها يمثل صفحه بيضاء فى العلاقات الإفريقية الأوربية ـــ فإن اتجاها١لأوربيين للاستعمار والاستحواذ على مساحات واسعة من القارة وتسخير الأفارقة وخيرات بلادهم لتحقيق الرفاهية للأوربيين يمثل صفحة سوداء فى تاريخ العلاقات الأوربية الأفريقية، والاستعمار ظافرة قديمة، حتى أننا يمكن أن نقول أن جذورها تضرب فى أعماق التاريخ إلى مدى بعيد، وقد شهد العالم القديم قيام إمبراطوريات استعمارية ضخمة كالإمبراطورية الرومانية، كإمبراطورية الإسكندر المقدوني ٠

لكن الاستعمار الأوربي في أفريقيا الذى برز بنوع خاص في القرن التاسع عشر تطور فى أساليبه ووسائله وأهدافه والنتائج التى ترتبت عليه حتى خيل للبعض إنه ظاًهرة جديدة مرتبطة بالقرن التاسع عشر فحسب ، ولذا فلابد من الوصول لتعريف دقيق للاستعمار فى شكله الجديد ينطبق على هذه الظاهرة التى برزت فى نشاط الدول الأوربية في افريقيا.

المقصود بالاستعمار:

تعددت التعاريف التى ذكر للاستعمار فى العصر الحديث؛ فالبعض عرفه بأنه يعنى سيطرة جماعة على جماعة أخرى .

و عرفه د ٠ كوامي روما بأنه سيطرة دولة اخرى واستخدام هذه الدولة المستعمرة كونها الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب آخر واستغلالة اقتصادية٠فالاستعمار من وجهة نظر د ٠ نكروما هو الساسة التي بها ترتبط وتؤيد الدولة الام مستعمراتها؛ و توجيهها من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية الخاصة .وهذا التعريف وغيره من التعريفات المتعددة التي ذُكرت للاستعمار ليست وافية بحيث تشمل جميع اشكال الاستعمار الحديث ووسائله وأهدافه ٠

ولعل تعريف الأستاذ الدكتور (محمد عوض محمد) هو اكثر هذه التعريفات شمولا فقد عرف الاستثمار بأنه : " العمل أو مجموعة الأعمال التى من شانها السيطرة أو بسط النفوذ بواسسطه دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان فى آن واحد"

فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية، وقد تحدث السيطرة على الأرض بشرائها بطرق منها عوامل الضغط ٠والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس قصد به أن يشمل الاستعمار.

الأعمال التى قامت بها (الشركات) التى تألفت في العصور الحديثة مثل الشركات الاستعمارية الألمانية التى أسسها كارل بيتر (K.Peters) ، وشركة الهند الشرقية البريطانية وغيرها من الشركات العديدة التى كثرت فى العصر الحديث وقامت بأعمال استعمارية عنيفة فى شرق أفريقيا وكثيرا ما مهدت لحكوماتها البسط نفوذها على الأماكن التى كانت قد ارتبطت بها هذه الشركات.

والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط عادة لا يحدث إلا فى بلاد خالية من السكان أو فى أماكن الخالية من السكان ٠

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض فيكون ذلك بترك الأرض ومرافقها للسكان الأصليين لاستقلال أرضيهم، وهذا عكس ما حدث فى شرق القارة حيث تملك المستعمرون على الأرض والسكان ، والسبب لا يرجع لميزة إمتاز بها مستعمرو الغرب لكن الأمر يرجع إلى أن أرض شرق أفريقيا المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين بينما أرض أفريقيا الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين الأوربيين فسيطروا على السكان واستخدموهم لاستغلال الأرض .

و كما حدث أيضاً في القرن الخامس عشر حيث قامت الدول الأوربية بالاستيلاء على مناطق السواحل الافريقية أقامت فيها الحصون والمراكز التجار؛ من أجل تجارة الرقيق٠

وهذا التعريف كما ترى شامل وعملي يسهل قياس الصور المختلفة التى تقابلنا على أساسه

والرق من البشع أنوا الاستعمار فهو استعباد للانسان واستغلال له سواء فى بلده الأصلي أو نقله عنوة للعمل فى بلاد أخرى لتحقيق الرفاهية للمستعمر الغريب ويختلف هذا بالطبع عن الهجرة الإجبارية ٠

وقد يتبادر للذهن سؤال هام هو هل يدخل ضمن الاستعمار النفوذ الاقتصادي أو الثقافي ؟والسليم ان المشروعات الثقافية والاقتصادية إذ لم تؤد الى بسط النفوذ السياسي أو تكون نتيجة نفوذ سياسي فهى ليست من الاستعمار فى شئ ٠

فاستخدام رؤوس الأموال الأجنبية أو إنشاء معاهد ثقافية أجنبية فى بعض البلاد إن لم تكن نتيجة تسلط اجنبى أو يترتب عليها هذا التسلط اى تكون ذريعة للتسلط فإنها لا تدخل تحت تعريف الاستعمار٠ولكن إذا اتخذت البعثات العلمية أو الدينية كما حدث فى أحوال كثيرة ذريعة تتذرع بها الدول لبسط سلطانها السياسي على قطر أو كتمهيد لاحتلاله فهذا بالطبع عمل استعماري.

وواضح أن الفرق و الحد بين الاثنين الاستعمار والاستثمار يتمثل فى خيط رفيع دقيق والأمر يحتاج ليقظة و تدقيق للتفريق بين الاثنين٠

دوافع الاستعمار الاوروبي لأفريقيا وتطورها:

مع أن الاستعمار الأوربي الحديث لأفريقيا بدأ في القرن الخامس عشر - إلا أن الأوربيين اكتفوا في القرن الأول من استعمارهم باتخاذ نقط ساحلية أو الإستقرار فى بعض الجزر القريبة من الساحل لكن في النصف الثانى من القرن التاسع عشر

وقبيل نهاية هذا القرن على وجه الخصوص ظهرت دوافع جديدة أدت إلى النهم الاستعماري فأخذت الدول الأوروبية تتوغل فى داخل أفريقيا وأراد بعض ساسة أوربا ايجاد أسس تتحرك فى إطارها هذه الدول وهى تعمل لمد نفوذها لمناطق جديدة فى القارة.

أهم الدوافع التي دفعت الأوروبيين لاستعمار أفريقيا:

1- الدافع الدينى:

انتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية فى شبه جزيرة ليبيريا بخروج العرب نهائياً من أسبانيا فى عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق – كما عبر عنها بعض الكتاب العرب (فردوس العرب المنقود) لكن البرتغال استطاعت ان تتخلص من الوجود العربي وأن تقدم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين.

وحمل البرتغال لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية و ذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحي — الذى ذاع صيته فى أوربا ، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك فى معركة تطويق الدول الإسلامية ودول المماليك بالذات والقضاء على مصدر وقوتها التى تتمثل فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة٠

ولا شك فى أن الحملات التى قام بها الأمير هنرى الذى اشتهر باسم هنرى الملاح (Henry the Navigator) و رحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق ، وبذا تستنزف هذه الثروة التى كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالي.

والدليل على ان الدافع الديني وراء الحركات الاستعمارية فى ذلك الوقت أن البابوية باركت هذه الحركات و بادرت بالتدخل لفصل النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال و أسبانيا .

وقد أدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا الشاط الاستعماري والذى تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم فى البحار الشرقية- لكن هزمت الأساطيل المصرية فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة فى مصر والشام والحجاز من المماليك ـــ القتال ضدد البرتغال وحلفائهم ٠

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلى جانب المماليك فى حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هى التى تقوم بنقل بضائع الشرق من موانى الشام ومصر إلى أوربا فمصلحتها الاقتصادية هى التى حتمت عليها هذا الاتجا.

ويرتبط بالعامل الدينى الحركات الدينية التى شاهدتها أوربا إثر النهضة الأوربية ، فقد أدت حركية الإصلاح الدينى والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التى ارتبطت بالكنيسة ورجال الدين فى العصور السالفة ـــ إلى تحطيم الوحدة الدينية لأوربا وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتية ، وقامت نتيجة لذلك مذابح دينية وحروب فى أوربا ادت لهجرة الكثيرين من بلادهم - لكن لم تلبث موجة الصراع والنشاط الدينى أن اتجهت إلى ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل في المناطق التى كانت تسود فيها الوثنية فى المستعمرات الجديدة ٠

واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلى أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية الذى بدأت تلقي الأضواء على داخل القارة فكان المبشرون يسيرون غادة في ركاب المستكشفين، وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت احيانا في كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوربيين.

ونذكر فى هذا المجال جهود لفنجستون (Livingstone) فقد انضم فى عام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية، وقد وجه نظره للعمل فى جنوب أفريقيا الدكتور موفات (Moffat) ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى كشف نهر الزمبيزى وفى إثارة الرأى العام العالمى ضد تجارة الرقيق بعد أن شهد بعينية ما يقاسيه الأرقاء من الآلام ، وقد دفعت رحلات لفنجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا واستكلندا٠

وفى شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ ونذكر بالنات فى هذا المجال جهود إلأب سابيتو (Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد فى خدمة شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهى الشركة التى لعبت الدور الاول فى الاستعمار الإيطالي فى شرق القارة ٠

على أن الجمعيات التبشيريه التى بدأت بالعمل على نشر المسيحية والحضارة بين الأفارقة انغمست فى ميدان الاستعمار فقد أصبح الهدف الديني يتخذ كوسيلة لتبرير الاستعمار ، فكان كثيرون من رجال الدين دعاة للاستعمار ، واشتهرت منهم أسماء متعددة فى هذا المجال نذكر منهم على سبيل المشال الكاردينال الفرنسي لافيجيرى(Javigerie) .

وقد كثر فى كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية و الأبوية ودور الرجل الأبيض الذى عبر عنه بالأب الأبيض (White Father) أو الأخ الأكبر (Older Brother) لكن أثبتت الأيام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يغطى به الاستعمار وجهه القبيح، وفى كثير من الأحيان حدثت أن أنعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس (The Flag Followed the Missionary) وقد أشار لينين إلى ذلك فذكر ان تأثير الدين فى السيطرة على الشعوب تأثير مسرحى ، فالمسرح يبدأ أول ما يبدأ بالإرساليات الدينية ثم يتبعها علماء الأجناس البشرية والتجار وأصحاب الامتيازات ورجال الغدارة، فبينما تتوسل الإرساليات الدينية إلى الوطنيين أبناء المستعمرات بان يكنزوا كنوزهم فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا يأكل صدأ ، نرى التجار واصحاب الامتيازات

ورجـال الإدارة يحصـولن علـى معـادن بلادهـم وعلـى مصـادر الثـروة الطبيـة فـى أرضـهم ويقضـون على فنونـهم وحرفهم وصـناعتهم الوطنيـة لكن مـن الإنصـاف أيضـاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها فى مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

تجارة الرقيق

كان الهدف من حركـة الكشوف الأولـى الوصـول إلـى الشـرق بفرض الحصـول علـى بضـائع الشـرق المطلوبـة فـى أوربـا ، ولـذا اهتمـت البرتغـال التـى بـدأت صـفحة الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث بإنشاء مراكز تجارية أو حصون عسكرية في الساحل الغربى لأفريقيا أو بالقرب منه حتى اطلق على الاستعمار البرتغالى فى ذلك الوقـت تعبيـر (اسـتعمار البهـار) اشـارة للهـدف منـه _ لكـن االأمـر تحـرل بسـرعة فأصـبحت السـلعة المتداولـة هـي الإنسـان الإفريقـي (العـاج الأسـود) بالإضـافة إلـى بضائع أفريقية أخرى كالذهب والصمغ والعاج.

ورغم أن البداية التي افتتحت بها البرتغال صفحة الرق فى العصر الحديث تبدو فى مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الديني اذ ادعت البرتغال ان هدفها هو ايجاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم الأفريقية لتلقينـهم مبادئ المسيحية ليعودوا إلـى بلادهم ليكونوا رسلا لنشرها ـ فلا شك فى ان هذا لا ينفى أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مساوئه فى العصر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربي لأفريقيا موردا هاماً للأيدي العاملة التي احتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد ٠

وحتى نهاية القرن الساس عشر كانت البرتغال هى التى تحتكر تجارة الرقيق وتقوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقي و كانت فى لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم.

ولما ازدادت الحاجة للرقيق الأفريقى _ اتجهت البرتغال لتسليح اتباعهم ممن أطلق عليهم لفظ (الجلابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم على القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالتوغل للداخل _ طالما أنهم يستطيعون

عن طريق أتباعهم المسلحين الحصول على حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون فى مراكزهم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر فى أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدام البنادق فى القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائية كالرمح والسهام هى الأسلحة التى عرفها الأفريقي قبل ذلك، وهكذا أصبح الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الاستعمارية فى أفريقيا.

ومع ذلك لم تستطيع الجهود التى بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الدول الأوروبية الأخرى المتزايدة للرقيق فدخل الهولنديون والفرنسيون و الإنجليز والدنمارك وغيرهم من الأوربيين هذا الميدان إلى جانب البرتغال ليسدوا الطبات المتزايدة للأيدى العاملة الرخيصة للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبسط سيطرتها على مناطق معينة من الساحل الأفريقى أو فى الداخل لتضمن حصولها على حاجتها من الرقيق - وتشكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقي وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى ٠

وقد بلغت أرباح هذه التجارة - تجارة الرقيق - حدًا خيالياً فمثلا كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم فى الجولة الواحدة برحلة مثلثة فتنقل الفائض من المصنوعات الإنجليزية لعرب أفريقيا حيث تستبدلها بشحنات آدمية تعبر بها المحيط الأطلنطي فتفرغها فى مناطق العمل بأمريكا ثم تعود بالتالى لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من محاصيل هذه الاقاليم ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحقق بالطبع أرباحاً طائلة، وكان هذا سر الثراء الفاحش الذى بدت مظاهرة فى بعض المدن والموانئ الأوربية، فإن كان الهولنديون يرددون فهى تراثهم أن مدينتهم العظيمة (امستردام) قد نبت على عظام الرنجة التي اشتهروا بتسويقها ليس بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن لشبونة فى البرتغال وليفربول فى إنجلترا قد بُنيت على عظام الرقيق السود وبدمائه.

وقد حاول بعض الباحثين أن يصل إلى إحصاء تقريبى لعدد الرقيق الذين وصلوا للمستعمرات الاوروبية منذ بدأت حركة الاسترقاق فى القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر _ لكن الأرقام اختلفت ولم تستطع أن تصل لأعداد تستند على أدلة قوية، فقد قدر ما وصل المستعمرات الأوربية كلها فى قرن واحد من ١٦٨٠م إلى ١٧٨٠ بحوالي ٤٠ مليون أفريقى — وإذا صح هذا التقدير وإذا وضعنا فى الاعتبار أن النظام الذى أتبع فى عمليات القنص والشحن والترحيل ترتب عليه أن ما كان يصل حيًا لا يمثل إلا نصف ما فقدته القارة فهذا يعنى أن القارة استنزفت فى قرن واحد ها يقرب من ٠ ٨ مليون من أبنائها ٠

هذا وقد أطلق الأوربيون على السواحل الأفريقية بل وعلى بعض المناطق التى بسطوا نفوذهم عليها فى القارة أسماء تتطابق مع نشاطهم مثل ساحل الذهب وساحل العبيد ، وساحل العاج ، وساحل الزنج ٠

هكذا ظل الرق مستمرأ والقارة الأفريقية تتعرض لحملات منتظمه من الاستنزاف البشرى والحكومات الأوروبية والشركات وتجار الأسلحة يشجعون استمرار هذه التجارة التى ثبت أنها أكبر أنواع التجارة ربحاً ٠

لكن من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأت ترتفع الصيحات مطالبة بوضع حد لهذه التجارة البشعة، وظهرت حركات تعارض الرق والإتجاز فيه (Anti Slavery Movement) كما انبرى عدد من رجال الدبن ومن الجماعات التي غرفت باسم أنصار الإنسانية (Humanitarians) تحاول أن تدفع الحكومات و البرلمانات لسن القوانين باعتبار هذه التجارة محرمة٠ ولقيت هذه الحركات معارضة من العديد من المنتفعين بهذه التجارة فقد وصل الحد مثلاً إلى أن اللورد دارموت (Darmot) وزير المستعمرات البريطانية يرد على لوضع حد لهذه التجارة بقوله : "إننا لا نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا".

وبرز في الحركة الداعية لوضع حد لهذه التجارة أشخاص من أمثال وليم ويلبرفورس (William wilerforce) عضو البرلمان الإنجليزي.

وقد توجهت جهود هؤلاء بصدور القوانين بمنع هذه التجارة، وفرض عقوبات على من يعمل بها - ولم يتم هذا الأمر فى كل الدول الأوربية فى وقت واحد، كما أن الأمر تدرج من تحريم الاتجار فى الرقيق إلى إصدار القوانين بتحريم العبيد السابقيين.

على أنه يرتب على هذه الحركة تحرير عدد كبير من الرقيق الموجودين خارج القارة فى انجلترا و أمريكا وغيرها وأدى بعضهم رغبته فى العودة إلى القارة الأم التى سبق أن عاش فيها آبائهم وأجدادهم - وأدى هذا لتأسيس شركات تعمل لإعادة توطين هؤلاء -الأفارقة فى وطنهم الأصلي، كما أدى هذا لاتخاذ مناطق معينة.

على الساحل الأفريقى لإقامة مستوطنات لهؤلاء الأمريكيين وبالمثل سيراليون للزنوج البريطانيين ٠

على أن الدول الاستعمارية اتخذت حتى من هذه الخطوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أطماعها الاستعمارية باسم تنفيذ قوانين تحرير الرقيق، فقد تدخلت انجلترا فى شئون زنجبار بحجة التأكد من أن السفن فى موانيها لا تحمل رقيقاً.

٣-دوافع استراتيجية:

جعل التطاحن بين الدول الاستعمارية على مناطق معينة فى القارة مركزا ممتازاً بالنسبة لموقعها وتحكمها فى الملاحة البحرية أو غيرها، ودفع ذلك الدول صاحبة المصلحة للإسراع باستعمارها، فمثلاً موقع الجزائر على البحر المتوسط فى مواجه سواحل فرنسا الجنوبية كان من الدوافع وراء الاستعمار الفرنسى لها فهى عام ١٨٣٠، ويقال مثل هذا عن أماكن أخرى فى شرق القارة وغربها فموقع مصر الهام

على البحرين المتوسط والأحمر والأهمية التى أصبحت لها بعد إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان وراء الاستعمار البريطانى لمصر ومسك بريطانيا بالنفوذ فى منطقة القناة٠

كذلك أثر موقع المغرب الاقصى (طنجة) بالذات وتحكمها فى المدخل العربى للبحر المتوسط فى موقف الدول الاستعمارية من المغرب ويقال مثل ذلك على منطقة رأس الرجاء الصالح (كيب تاون) وأهميتها في الملاحة بين غرب القارة، وشرقها ، كذلك منطقة باب المندب والمناطق التى تقع خلفها على الساحل الأفريقي الشرقي وما نطلق عليه اليوم (منطقة القرن الأفريقى) كان ولا يزال موقعها سبباً فى الصراع الاستعماري عليها ٠

٤) عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها وحالتها الداخلية:

كانت الأوضاع الداخلية في بعض الدول الأوروبية؛ من الدوافع التي دفعتها لتخرج لميدان الاستعمار نذكر على سبيل المثال أن حالة القلق الداخلي التى كان يعاني منها الشعب الفرنسى منذ عام ١٨١٥ جعلت الحكومة تفكر فى تحويل نظر الشعب عن المشاغل والاهتمامات الداخلية _ فالشعب الفرنسي كان لا يزال في حالة السكر بمجد العظمة الإمبراطورية وكان ذلك من الأسباب الي دفعت الحكومة الفرنسية للتفكير فى غزو الجزائر ، وقد صرح رئس الوزراء بولينـاك (Poliynac) فى مجلس الوزراء عند مناقشة موضوع حملة الجزائر بان هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسي تتجه إلى الخارج، وأن النصر فى هذه الحمله سيساعد على تقوية الملكية وسيكون فيه الرد العملى على الذين اتهموا الملكية منذ عودتها في عام ١٨١٥ بإتباع سياسة السلم والاستسلام ٠

5) العوامل النفسية وراء الاستعمار الأوربى الحديث:

الدول كالأفراد يتحكم فيها ما يتحكم فى الأفراد من ظاهرات نفسية كشهوة الأمتلاك وحب العظمة والظهور والمباهاة والغيرة، و محاكاة الغير - وأدى هذا للتنافس الشديد بين أبناد أوروبا ودولها وحكوماتها ٠

وكانت أفريقيا القارة المكتشفة حديثاً المجال الفسيح للتنفيس عن هذه الصراعات النفسية كالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثورات الداخلية والضغوط من الأفراد و الجماعات على الحكومات لمجاراة الدول الأخرى فى ميدان الاستعمار، كل هذا وراء خروج الأوربيين للاستعمار.

وقد كان الكتاب الإنجليز فى القرن الحساضي يتحدثون عن إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس ويتضح ذلك أيضاً في ضغط الرأي العام الألماني على الزعيم الألماني بسمارك ليخرج بألمانيا إلى ميدان الاستعمار أسوة بإنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية ٠

٦) الثورة الصناعية فى أوريا:

أوجدت الثورة الصناعية في أوربا حوافز جديدة دفعت عجلة الاستعمار الأوربى فهذه الثورة ادت للإنتاج الكمى (Mass Production) الذى يترتب عليه التخفيض في تكلفة الإنتاج ، وذلك بدلا لسد الحاجات الضرورية للمواطنين فحسب ، فأصبحت الحاجة ماسة للمواد الخام ثم لأسواق لتصريف الفائض من الإنتاج.

وودت الدول الصناعية فى أفريقيا مجالا طيباً حيث نتوافر المواد الخام الزراعية والمعادن إلى السوق الواسعة لتصريف الفائض من منتجاتها من الإنتاج وذلك بعكس الوضع فى أوروبا.

وقد برز هذا العامل الاقتصادي كدافع هام وراء الاستعمار (Economic Imperialism) حين انتقلت مقاليد الأمور فى الدول الكبرى الصناعية إلى طبقة

التجارة والرأسماليين وأصبحت الأغراض التجارية والصناعية بالذات تحكم فى سياسات هذه الدول وسعت الرأسمالية الأوربية إلى البحث عن مجالات أخرى لاستثمار رؤوس أموالها - وكان المجال أماسها واسعاً في القارة الأفريقية بالذات.

وترتب على هذا تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي ذاع صيتها فى ميدان الاستعمار فى أفريقيا، فقد اكتشفت هذه الشركات فى أفريقيا مستودعا كبيرا للمواد الخام من مذتجات الكساء الخضري الى الثورة المعدنية - فاندفعت لاستنزاف مواد القارة حتى كادت تنضب مواردها النباتية والحيوانية والمعدنية فقد كان قانون المستعمرين هو امتصاص زبد الإقليم (Skim The Cream) ، و اصبح افضل تشبيه للاستعمار بأنه مضخة ماصة في المستعمرات كابسه فى الدول الاستعمارية.

وكانت المستعمرات فى نظر الدول الاستعمارية لا تخرج عن كونها مصدرا للمواد الخام وللعمال ذوي الأجور الرخيصة بالإضافة إلى مستودع للفائض من المصنوعات غير الجيدة بأسعار عالية، واصبح الأوربيون ينادون " بان العقل الأبيض(white Brain) والعقل الأسود (Black Brawn) يجب أن يتعاونا لخير الطرفين.

وتاريخ هذه الشركات الاوربية الاستعمارية ودورها فى القارة الأفريقية جدير بالدراسة ، فقد اندفعت هذه الشركات لاستغلال القارة مستندة على ما أمدها به العلم من وسائل وإمكانيات فأًصبحت المواصلات ميسرة كما أخضعت أمراض المناطق الحارة لسلطان العلم والطب واصبح الوصول إلى داخل القارة ممكنا ومأمونا إلى حد كبير.

وكانتت الشركات كثيرا ما تبدأ العمل، فى القارة قم لا تلبث أن تترك المجال للحكومات متذرعة بسبب أو آخر - و لذا فإن القاعدة القديمة القائلة أن الاستعمار تبيع التجارة (The Trade Follows The Trade) أنقلبت فأصبح الافرب للصواب أن يقال (The Flag Follows The Trade) ٠

والأمثلة على ذاك كثيرة فالاستعمار البلجيكى للكنغو كانت بدايته الشركة التي اسسها الملك ليوبرلد الثانى (leobold II) ملك بلجيكا برأسمال مليون فرنك لاستغلال الكنغو ، كذلك فإن الشركات الاستعمارية الالمانية كشركة كارل ببترز ((K.Perersالتى بدأت نشاطها فى شرق أفريقيا ، وكانت شركة سيلل جون رودس التى عرفت باسم شركة جنوب لأفريقيا البريطانية والتى صدر مرسوم بتأسيسها فى عام ١٨٨٩ بدعوى استغلال مناجم الذهب في جنوب أفريقيا وروديسيا والمناطق المحيطة بها - الأساس الذى قام علية الاستعمار البريطانى فى هذه الجهات ، وكانت شركة روباتينيو الإيطالية (Robbatinio) ممهدة لاستعمار الإيطالى لميناء عصب ولمستعمرة إريتريا٠

ولكى تحقق الدول الاستعمارية أهدافها رسمت سياستها على أسس أهمها:

١ -التحكم فى أسعار المواد الخام بالمستعمرات بحيث تصل لأماكن التصنيع فى الدول الكبرى بأقل سعر مكن.

٠٢ أن تبقى المستعمرة دائماً بلاداً غير صناعية ٠

٠٣ ألا يكتسب أبناء المستعمرة الخبرة الغنية والمعرفةل١لتي تعينهم على تنمية صناعتهم المحلية.

٤ . العمل على أن تكون الأيدي العاملة الوطنية دائماً متوفرة وعلى استعداد لتلبيه طلبات الدول المستعمرة.

٠٥ الاحتفاظ بمستوى اجور العمال الوطنيين المنخفضة فى المستعمرات .

٠٦ وضع قيود على المستعمرات بحيث لا تتاجر مع الدول الأخرى ٠

وقد عبر عن هذه الأهداف بصراحة رئيس الحكومة الفرنسية جولس فيرى (Jules Ferry) عام ١٨٨٥ فى تصريح له فى البرلمان الفرنسى، وقد عبرت عن

ذلك جريدة (Christian Science Metor) فذكرت " إن رأس المال الأمريكى أكتشف فى أفريقيا قارة من ١٥٠ مليون مستهلك ومصادر لا تنضب من المواد الخام"

و هذا يفسر لنا السبب في أن الدول الأفريقية حين استقلت وجدت نفسها عاجزة عن استغلال مواردها الطبيعية فقد كانت بحاجة للخبرة الفنية والتدريب وإلى غير ذلك من المقومات الأساسية لقيام ونجاح الصناعات الوطنية وهو ما حرص الاستعمار على عدم إتاحة الفرصة لأبناء المستعمرات لاكتسابه.

٧) تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار:

تذرعت بعض الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا وألمانيا بان الاستعمار ضرورة فرضتها ظروفها لتكون المستعمرات كمصرف للزائد من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة بلادهم٠

فالكتاب الفرنسيون والألمان أخذوا يتحدثون من فرعين من المستعمرات :

أ) مستعمرات سكنية بغرض الإقامة الدائمة بها ٠

ب) مستعمرات استغلالية للأغراض الاستغلالية التجارية.

وقد دفعت بعض النظم الاجتماعية الجديدة فى المجتمع الصناعي الأوروبي بالإضافة إلى الصراعات السياسية والدينية فى أوربا بالبعض إلى الهجرة من أوطانهم٠

وقد وجدت بعض الدول الأوروبية أنه لكى لا تفقد زهرة شبابها الذين كانوا يهاجرون للخارج ويقطعون صلاتهم بأوطانهم أن تحل هذه المشكلة بأن توجد مستعمرات سكانية ترتبط بالوطن الأم يهاجر إليها أمثال هؤلاء الشبان وبذلك تبقى صلتهم بالوطن الأم مستمرة. ولكن ثبت أن ادعاءات هذه الدول بحاجتها الماسة للمستعمرات السكانية ليست صحيحة بدليل أن هذه الدول لم تجد من أبنائها من يرغب بمحض

إرادته فى أن يهاجر وأضطرت الحكومات إلى إرسال المجرمين والمحكوم عليهم فى قضايا جنائية وغيرها من غير المرغوب فيهم للمستعمرات٠

هذا على أن النهضة الصناعية الأوربية امتصت فى الحقيقة معظم الأيدى العاملة فى هذه البلان٠

٨) دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول المستعمرة:

ادعى بعض الكتاب السياسيين الفرنسين والانجليز وغيرهم بأن دولهم لها رسالة فى نشر المدنية فى الجهات غير المتحضرة من القارة الأفريقية، فقد كان رودس مثلا يردد القول بان خير الإنسانية يتحقق بان يمد الجنس الأنجلو سكونى نفوذه على أكبر مساحة ممكنة ٠

لكن ظهر أيضاً من الكتاب الأوروبيين أنفسهم من وجد لديه الشجاعة الكافية ليسخر من هذا الإدعاء ففى عام ١٨٨٥ كتب بعضن الكتاب الفرنسيين مقالات يسخرون فيها من سياسية بلادهم الاستعمارية ومن ادعاءات رجال السياسة عن المهمة الإنسانية التى تقوم بها فرنسا فى أفريقيا، وذكروا أن مهمة فرنسا فى بلد كالجزائر انحصرت فى تعليم العرب هناك شرب الخمور الرديئة وطائفة اخرى من الرذائل لم يكونوا يعرفونها.

على أن رجال السياسة الاستعماريين أنفسهم لم يجدوا بعد ذلك ما يدعوهم لأن يسدلوا على أعمالهم الاستعمارية هذا الستار الإنساني فمثلاً نجد لوجارد Lugard) (وهو من الاستعماريين البريطانيين يصرح سنة ١٨٩٢ بان الاستعمار الإنجليزي فى أفريقيا تدعو له مصالح إنجلترا الحيوية الخاصة بمواجهة الزيادة فى منتجاتها ، ففى أفريقيا مجال طيب لتوزيع الفائض من هذه المنتجات ولتنمية التجارة الإنجليزية ٠

وبالمثل فى فرسا نجد الكاتب الفرنسي دارسى (Darcy) يذكر سنة ١٩٠٤" إن توسيع الدولة خارج حدودها أصبح شرطاً اساسياً لقيام ودوام هذه الدولة، ففى عصرنا هذا من لا يتقدم ويسبق يتأخر ، ومن يتأخر لا بد من أن يغرقه الطوفان.

وفى عام ١٩٢٣ صرح وزير المستعمرات الفرنسي البرت سرو (Albert Serrate) بأن الاستعمار لم يكن إلا حملاً من أعمال القوة دعت إليه المنافسة المتزايدة بين الأفراد والجماعات " وهكذا لم تصبح هناك ضرورة للبحث عن أعذار شكلية تتذرع بها الدول الاستعمارية لتبرر عمليتها الاستعمارية.

وسنحاول أن نتتبع الدور الذى لعبته كل دولة استعمارية أوروبية في القارة الأفريقية وسياسة هذه الدولة، ووضع الأفارقة فى ظل هذا الاستعمار وموقفهم من المستعمرين.

الفصل الرابع

الكشوف البرتغالية للقارة الأفريقية

- دوافع الاستعمار البرتغالي

- رحلات البرتغال الكشفية

(رحلة هنرى الملاح- ديجو كم- بارثليميودياز- بدرو دى كوفيلهام- فاسكوداجاما)

- البرتغاليين على سواحل أفريقيا.

- النظام البرتغالي فى الكونغو وأنجولا.

- النظام البرتغالي فى موزمبيق وشرق أفريقيا.

دوافع الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا

افتتح البرتغال صفحة الاستعمار فى افريقيا باحتلالهم قلعة سبته المغربية فى عام ١٤١٥ وكان البرتغال فى ذلك الوقت تحت- حكم يوحنا الأول ويرجع سبق البرتغال غيرهم من الأوربيين قى استعمار افريقيا يرجع ذلك لعاملين:

أولاً : عامل تاريخى:

فقد كانت شبه جزيرة ليبيريا محتلة من العرب وخلدت كذلك لعدة قرون ولما بدأت شعوب شبه الجزيرة تنشط فى مقاومة العرب بعد أن تفككت الدولة الأموية في الأندلس وانقسمت إلي دويلات _ استطاعت البرتغال أن تستكمل استقلالها فى القرن الثالث عشر وقاما بها ملكية فنية بينما ظلت أسبانيا حتى القرن الخامس عشر تطارد العرب إلي أن سقطت غرناطة آخر معاقل العرب فى عام ١٤٩٢، وهكذا أتيحت الفرصة للبرتغال للاتجاه خارج بلادهم قبل غيرهم.

كما أن الملكية الفتية فى البرتغال وجدت أن استمرار تعقبها للعرب الذين نزحوا من شبه جزيرة أيبيريا إلى ثغور شمال أفريقية يدعم مركز هذه الملكية كذلك فإن الحروب ضد المسلمين أعطت البرتغال دفعة دينية حتى فى الوقت الذى كانت فيه الحماسة الدينية الذى صاحبت الحملات الصليبية قد فترت، والدليل على ذلك أن الملك يوحنا ملك البرتغال صرح بان الميدان الحقيقى الذى يكتسب فيه أصحاب البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين فى المغرب وأنه سيمنح أكبر وسام فى بلاده لمن يجاحد في هذا الميدان - وكان هذا الشرف من نصيب هنرى الذى عرف باسم(هنرى الملاح) الابن الثالث للملك.

ثانياً : عامل جغرافي:

ويتمثل فى موقع بلاد البرتغال وقربها من السواحل الأفريقية وكانت المسافات فى ذلك الوقت لها أهميتها.

وقد روادت هنرى فكرة الحملات البحرية للقارة الإفريقية بهدف الوصول إلى غانا التى اشتهرت بعلاقاتها التجارية مع المسلمين، وكذلك الوصول إلى إثيوبيا المملكة المسيحية الأفريقية التى لم تكن لدى الأوربيين معلومات كثيرة عن موقعها٠ لكن شاع فى أوربا الحديث عن ملكها المسيحي الذى عرف باسم يوحنا وذلك بهدف التعاون بين البرتغال وهذا الملك المسيحي لتطويق المسلمين للوصول إلى منتجات الشرق التى تدر على البلان الإسلامية ـــ ودولة المماليك بالذات التى كانت تمثل القوة الإسلامية العظمة فى ذلك الوقت - أرباحا طائلة.

رحلات البرتغال الكشفية:

وقد أهتم هنرى الملاح بتقوية اسطول البرتغال وإنشاء مدرسة بحرية وجلب لبلاده عددا كبيرا من الفلكيين ورسامى الخرائط والبحارة من ايطاليا وصقلية.وقد توالت رحلات البرتغال إلى ساحل أفريقيا الغربى بعد فتح سبته فى عام ١٤١٥ فاحتلوا جزر كناريا وجزر ماديرا، والرأس الأبيضن ووصلوا إلى مصب السنغال والرأس الأخضر ٠واهتم البرتغال بإنشاء الحصون و القواعد على الساحل الغربى للقارة لخدمة أغراضهم التجارية والاستعمارية

وفى عام ١٤٨٤ وصل الرحالة الرتغالى ديجوكم (Diego Cam) إلى الكنغو وحاول البرتغال التو غل للداخل وفرض سيطرتهم عليها و نشر ثقافتهم ولغتهم فيها ـــ لكن باءت هذه المحاولات بالفشل فلم يستطيعوا السيطرة على الكنغو سياسياً كما لم يكن لهم أثر ثقافى، واضطر رجال الدين الذين وفدوا للتبشير فى هذه الجهات ، كما أضطر التجار البرتغال لأن يعودوا أدراجهم ، وتعتبر هذه من أولى المحاولات الجادة للاستعمار الاستيطاني الأوربي فى القارة الأفريقية ، وظلت الكونغو كذلك حتى كشفت رحلات ستانلى النقاب عن ثرواتها الطبيعية فاتجهت اليها أنظار المستعمرين الأوربيين٠

وتركزت جهود البرتغال بعد نلك فى المنطقة الواقعة جنوب الكنغو عند ميناء لواند (Luanda) وكانت هذه هى نواة مستعمرة أنجولا البرتغالية التي اشتهرت فيها بعد كمركز من أهم مراكز تصدير الرقيق الأفريقي إلى البرازيل بالذات واشتهرت فى تاريخ البرتغال الاستعماري باسم الأم السوداء إشارة لشهرتها فى إمداد البرتغال بحاجتها من الرقيق.

وفى عام ١٧٨٦ رحل الرحالة بارتيليمودياز (Bartholemeu Diaz) إلى الطرق الجنوبى من القارة عبره لسافة قصيرة فى جو عاصف فاطلق عليه اسم (رأس العواصف).كانت الفكرة التي تراود البرتغال منذ بدأت رحلاتهم البحرية هى أن يحيطوا بالقارة ويصلوا للهند.

وفى سنة ١٤٨٧ وصل لممصر الرحالة البرتغالى بيدرودى كوفيلهام (Pedro De Coviikam) وكان يعمل لحساب الملك البرتغالى، ثم سافر هذا الرحالة عن طريق البحر الأحمر لمدن وللعدن والهند ةفي أثناء عودته زار بعض الإمارات العربية فى الساحل الشرقى لأفريقيا وقد فتحت رحتله العيون إلى أهمية هذه الإمارات العربية بشرق القارة وكانت معلوماته أساسا للرحلة التى قام بها فيما بعد فاسكودا جاما (Vasco De Jama) حول رأس الرجاه الصالح.

فقد قام فاسكو داجاما فى ١٤٩٧ برحلته فى أربع سفن ووصل إلى نهاية القارة وعبر رأس العواصف التى غير اسمها إلى رأس الرجاء الصالح إلى الساحل الشرقي حيث وزاهرة، وبإرشاد الرحالة العرب وصل إلي (كلكوت) على ساحل الهند الغربي، ودعا إلى لشبونة.

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال فى هذا الطريق واسطدموا بالإمارات العربية فخضعت لهم سفالة ، وكلوه ، وممبسه وغيرها من المراكز التى كان يستقر بها العرب ، واستولى البرتغال على موزمبيق عام ١٥٠٧ واستقر عدد منهم بها

وحصنوها وتوسعوا فى المناطق المحيطة بها فأصبحت مركزا هاماً لهم بشرق القارة وعينوا حاكماً لهم بها كما أصبحت انجولا مركزهم بغرب القارة .

البرتغاليون على سواحل أفريقيا

كان وصول البرتغاليين إلى سواحل القارة الإفريقية قد بدأ منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ؛ أي في نفس الوقت الذى بدأت فيه عملية الكشوف الجغرافية من أجل الوصول إلى الهند . وبدأ الاحتكاك الأول بين البرتغاليين والقارة الأفريقية بهدف الحصول على ما يلزم سفنهم ، في محاولتها الوصول إلى الشرق الأقصى ، من مياه ومؤن : ثم تطور الأمر إلى إنشاء مراكز تجارية برتغالية على طول الساحل الأفريقى الغربى فى اتجاه الجنوب ، ثم ساحل القارة الإفريقية الشرقية ، في الاتجاه صوب الشمال ، وصوب خليج عدن، وأصبحت هذه المراكز التجارية جيوباً أوربية على الساحل ، بدأت منها عملية الحصول على ثروات القارة ، متمثلة في الذهب وبقية المنتجات الإفريقية مثل العاج والأبنوس وريش النعام ، ثم أصبحت بعد ذلك مراكز لاستعمار القارة، والانتشار منها صوب الداخل ، وكذلك مراكز للعمل على صيد الأفارقة، وبصفتهم من العبيد. وعلى هذا الأساس سنسير مع البرتغاليون ، خطوة بخطوة ، وفى اتجاه ملاحة سفنهم ، وإنشائهم لمراكزهم . وقيامهم بنشاطهم ، إلى أن يأتي أوربيون آخرون، ويحاولون الاشتراك معهم في نفس العملية .

وصل البحارة البرتغاليون إلى منطقة رأس الأبيض ، ثم إلى رأسكاترين منذ عام ١٤٠٨ . ومنذ ذلك الوقت بدأ نشاطهم من أجل مد سلطتهم على هذه السواحل ، وحتى منطقة الكاميرون، وسان توماس ؛ وأعلن ملك البرتغال مشاركة ملكيته لهذه السواحل ، وبطول ألفى ميل، وأطلقوا على كل هذا الساحل اسم ساحل غانا ، وكان معنى ذلك عدم السماح لغيرهم من الأوربيين بممارسة حقوق على هذه المنطقة دون إذن منهم، وبنوا هذا الحق على أساس أسبقيتهم في الوصول قبل غيرهم، ورفعوا علمهم ؛ الذي رسم عليه صليب كبير ، على نقاط مختلفة من هذا الساحل .

وكانت هذه المنطقة الشاسعة، ولم يكن في وسع البرتغاليين تغطيتها بسلطة فعلية، على الأراضى وعلى الأهالى الذين يعيشون فيها. كما كان المناخ حار ومرتفع الرطوبة ، فاكتفى البرتغاليون بإنشاء سلسلة من الحصون ، منتشرة على طول الساحل ، تستخدم كمحطات للسفن البحرية ، يستزودون فيها بالمياه ومواد التموين ، أو تصلح فيها بعض أمورها، قبل أن تواصل سفرها ، ومنحهة دائماً صوب الجنوب ، وصوب رأس الرجاء الصالح .

وعلينا أن نقرر بأن قوة البرتغاليين الاستعمارية فى هذا الوقت ، والهدف التجاري الضخم الذى كانت تهدف إليه، بالوصول إلى تجارة الهند ، والسيطرة عليها وانتزاعها من أيدى المسلمين ، كان لا يسمح لها بإقامة نظام استعمارى قوى على هذه السواحل الإفريقية، فلم يكن التملك يغريهم بنفس درجة إغراء التجارة لهم . وكانت هذه الحصون مراكز تجارية، حاول فيها البرتغاليون الدخول في علاقات تجارية مع بعض زعماء القارة الإفريقية ورؤساء القبائل ، القريبين من الساحل ، حتى يتمكنوا من أن يحصلوا عن طريقهم على منتجات وموارد القارة الأفريقية ، وحسب درجة احتياجهم إليها ، و كان وصول البرتغاليون إلى السواحل الإفريقية، ومعهم البنادق والغدارات يعنى مواجهة الأفارقة منذ هذا العصر ، وبالتحديد منذ النصف الثاني من القرن لخامس عشر ، لقوة الأسلحة النارية ، والتى كان أبناء القارة لم يشهدوها من قبل.

ومن ناحية ثانية نجد أن عملية وصول البرتغاليون ارتبطت كذلك ومن يومها الأول ، بتلك الحركة التي نادت بضرورة إدخال الشعوب الضائعة في هداية المسيحية ، وضرورة تطويق العالم الإسلامي من الجنوب ، وإقامة مجموعات من الأفارقة المسيحيين في هذه المناطق. وخدم سلاح الدعاية أو السلاح المعنوى الأسلحة النارية، حركة وصول البرتغاليون إلى هذه المناطق ، والسلاح المادي وهر وساعدهم على التفوق في كل منطقة ينزلون إليها .

ولقد قامت بعض الحركات ، في ذلك الوقت ، لتوضين بعض البرتغاليين في هذه المواقع والحصون البرتغالية ، ولكن صعوبة المناخ وقلة أعداد البرتغاليون الراغبين في التوطن هناك وقلة إمكانية دفاع الدولة عنهم ، أدت إلى فشل هذه المحاولات المتتالية ، وكانت الرغبة في الحصول على الثروات ، وبطريق سريع ، تنفع البرتغاليين إلى الحركة ، وإلى الهجوم، وكذلك إلى استخدام العنف والشدة ، حتى يتمكنوا من الحصول على المكاسب في أقل وقت ممكن، والعودة بها إلى بلادهم . ولكن الدولة البرتغالية احتكرت التجارة مع هذه المناطق ، ومع القبائل الأفريقية الموجودة فيها فكانت ترسل بعض الأقمشة وبعض المصنوعات الزجاجية أو المعدنية. كوسيلة للمقايضة ، من أجل الحصول على الذهب والصمع والعاج وريش النعام ، وحتى من أجل الحصول على الدقيق.

ولقد امتدت هذه الخصون على طول الساحل الأفريقي الغربي ، وكانت أشهرها هي حصون أرجوين، وسان توما ، وسان جورج دى مينا، ثم سانتياجو.

وكانت منطقة غرب إفريقية هى أولى المناطق التى وصل إليها البرتغاليون، وكانت جزيرة أرجوين هي جزيرة صغيرة قرب الساحل ، وفي مواجهة رأس الأبيض . . وكان هذا الحصن هو نقطة التمركز التي ساعدت البرتغاليون على البدء في التعامل مع منطقة السودان الغربي ، وحتى تنبكتو ، والتي حاولوا الوصول إليها منذ السنوات الأولى النزولهم فى هذا الموقع . وسوف تأخذ هذه الجزيرة أهمية كبيرة ، فيما بعد ، وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفى الوقت الذي تزدهر فيه تجارة الرقيق بين القارة الأفريقية والعالم الجديد ، وبعد أن أحد البرتغال صعوبة في حصولها على كميات ضخمة من الذهب من منطقة غرب إفريقية وأصبح هذا الحصن يرسل ألف عبد في كل عام إلى البرتغال ، أو إلى المواقع البرتغالية الأخرى.

البرتغاليون في غرب أفريقية :

وإلى الجنوب من ذلك ، نصل إلى جزر الرأس الأخضر والتي تقع على الساحل الأفريقى فيما بين السنغال وسيراليون ، ومن هذه الجزر كذلك تمكن البرتغاليون من نشر ومد سيطرتهم على الساحل المواجه ، مما أدى إلى نشأة غينيا البرتغالية . وفي هذا النطاق ، تمت تجارب لتوطين بعض البرتغاليين في هذه المنطقة واحضرت حكومة البرتغال إلى جزر الرأس الأخضر بعض أبناء حشوة ، وذلك من أجل العمل في الزراعة ، مستخدمين فيها الأفارقة. وتم في هذا القطاع نوع من التخليط بين الأوربيين وبين الأفارقة وكانت الإدارة تختار من هؤلاء المخلطين بعض الجنود والموظفين اللازمين لها لإدارة المستعمرة ، وكانت سانتياجو نقطة انطلاق نحو الداخل ، ونحو نمو التجارة مع العناصر الوطنية ، ونحو إنشاء مراكز وحصون برتغالية أخرى ، على طول سواحل أفريقية الاستوائية ، وحاولوا الانطلاق فيها كذلك نحو تنبكتو ، وحاولوا كذلك اتخاذها مركزاً لنشر المسيحية من الساحل صوب الداخل ، وبإسم هداية الأرواح الضالة.

ولقد استخدمت البرتغال فى هذه المناطق سلطتها المباشرة في الاتجار مع الأهالى ، وباسم الدولة وفى شكل سلطة احتكارية. وحين ضعفت سلطة الدولة ، عهدت الحكومة البرتغالية بهذه الحقوق إلى متعهدين برتغاليين ، يقومون بممارسة سلطتهم بناء على الصكوك التى يحصلون عليها من حكومة لشبونة . ولقد انتشرت اللغة البرتغالية من الساحل صوب الداخل بالتدريج ولكن بنسبة بسيطة ، وكذلك انتشرت الديانة المسيحية ، على المذهب الكاثوليكي ، ومن المخلطين إلى بعض الزعماء الأفارقة ، وخاصة من ارتبطت مصالحهم بمصالح القادمين الجدد ، بمصالح المستعمرين ..

ولقد أخذ البرتغاليون مع بداية تعاملهم مع الأهالي في وضع ما يمكن تسميته بالسياسة الأفريقية تجاه الوطنيين ، ولكن علينا أن نذكر أن نفوذ البرتغاليين كان بسيطاً وكذلك درجة نجاحهم فى التعامل مع الأهالى ، حتى أن مواصلاتهم بين هذه

الحصون وبعضها أى بين سان جورج دى مينا ، وسان ميشيل وسانتياجو ، كان لا يتم إلا بالسفن ، وعن طريق البحر ، ومعنى ذلك أن الاتصال البرى كان صعباً إما الطبيعة الأرض والمناخ ، وإما لعلاقاتهم بالأهالى ، ولا شك في أن بعض الجماعات المسلحة كانت تخرج من وقت لآخر من أحد هذه الحصون للذهاب إلى حصن آخر ولكن ذلك كان يهدف القوافل الكبيرة ، والاستيلاء عليها ، أو توجيه ضربات للقيادات الوطنية ، وكذلك صيد الأفارقة لبيعهم كعبيد.

وكانت البرتغال تحصل على كميات من الذهب من الساحل الأفريقي وبخاصة في منطقة غانا ، وكانت تحصل على ما تصل قيمته من هذا المعدن إلى مائة ألف جنيه في العام . أما الرقيق ، فكان يرسل من أرجوين ، وسان توما إلى سان حورج ، تمهيداً لإرساله إلى لشبونة ، أو إلى العالم الجديد ، وكانت سيطرة البرتغاليين ضعيفة على هذا الجزء من الساحل وعلى عكس الحال بالنسبة للجزء المواجه لمنطقة غينيا ، والذى نشأت فيه قلعة بيساو . وزاد في هذا القطاع أمر استغلال البرتغاليين : ومنذ القرن الخامس عشر ، لعملية التجارة في الموارد الأفريقية بشكل عام ، وفى العبيد بنوع خاص ، ودخل البرتغاليين في علاقات تجارية مع الرؤساء الأفارقة في منطقة بنيز ، وعملوا في هذه المنطقة على نشر اللغة البرتغالية ونشر الديانة المسيحية وحين زادت أهمية الاستعمار الأوربي في العالم الجديد وزادت الحاجة للأيدي العاملة ، شاركت هذه المنطقة على نشر اللغة البرتغالية ونشر الديانة المسيحية ، وحين زادت أهمية الاستعمار الأوربي في العالم الجديد وزادت الحاجة للأيدي العاملة، شاركت هذه المنطقة كذلك في تزويد البرتغال وغيرها من الدول الاستعمارية ، بالأيدى العاملة ، المشتراة والتي كانت ترسل إلى العالم الجديد في شكل رقيق أو عبيد .

الكونغو وانجولا :

وبعد غرب أفريقية ، واستمرار السفر في حذاء إفريقية الاستوائية ، وصل البرتغاليون إلى منطقة الكونغو ، وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها الأهالى هذا النوع

من السفن الضخمة ، ويبدعون فى التعامل مع مجموعات تستخدم الأسلحة النارية ، وبدأ الاتصال بين البرتغاليين فى هذا القطاع وبسين ملوك الكنغو، والذين كانوا يقيمون على بعد مسافات معينة من داخل القارة، واستخدم البرتغاليون في ذلك مجموعة من الرهبان ، وبدءوا بتقديم الهدايا ، ولكن هذه الحملات كانت تعود من الداخل ، ومعها أعداد من الرقيق ، تصل بها إلى مصب سب نهر الكنغر ، تمهيداً لإرسالها إلى لشبونة ، وبدأ هذا الاتصال منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وانتهى بنوع من التفاهم بين البرتغاليين وبين ملوك الكنغو ، ولا شك في أن البرتغاليين قد قدموا للأهالى الإغيل ، مع بعض الهدايا من الخرز والمصنوعات الملونة، ولكنهم أخذوا من الأهالى أغلى المنتجات الأفريقية وكان أثمنها هو الرجل الأفريقي نفسه ، وبصفته عبداً وكانت تعليمات ملك البرتغال تصر على الرسالة المسيحية للبرتغال في أفريقية ، ثم تصر كذلك على ضرورة ملء السفن بالعاج والعبيد.

ولقد وافق أحد ملوك الكونغو على بناء كنيسة في عاصمته ، وسمى . بإسم سان سلفادور ، وعين أبنه أسقفاً عليها ، ولكن العلاقات ساءت مع البرتغاليين في عام ١٥٣٩ ، ورفضوا له أمر إرسال ابنه إلى البابا ، ومنعوه من الدخول في علاقات مع غيرهم، وحتى مع البابا نفسه، مادامت البرتغال هي التي تشكر الكنغو ، وموارد الكنغو ، ولقد زادت سيطرة البرتغاليين على هذه المنطقة وزادت العمليات الحربية فيها ، حتى سيطروا عليها سيطرة كاملة في القرن السابع عشر ، ورغم المجهودات الكبيرة التي بذلها رجال الجماعات المسيحية ، وجماعات التنصير، إلا أن انتشار المسيحية ، وكذلك انتشار اللغة البرتغالية كـــان محدوداً للغاية، وكان يسير مع القيادات التي ارتبطت مصالحها بمصالح المستعمر البرتغالى.

أما فيما يتعلق بأشمولا فإن أهميتها قد زادت بالنسبة للبرتغال ، حتى احتلت المكانة الأولى بدلاً من الكونغو عند نهاية القرن السادس عشر ، وهنا أيضاً بعد أن البرتغاليين قد اهتموا بنشر الدين المسيحى ، وإن كان البرتغاليون قد استخدموا نظام

الحكم غير المباشر ، أى بعض القيادات الأفريقية نفسها في حكم بقية الإفريقيين، وبعد حروب كثيرة وصغيرة ، وحملات لصيد العبيد ، أخذ البرتغاليين في تقسيم الجولا إلى مناطق بين القيادات الأفريقية المواليين لهم، يقومون بإدارتها والدفاع عنها ، وباحتكار حق التجارة فيها ، وذلك في نظير تقديمهم لكميات محددة من المنتجات الأفريقية ، وأعداد ثابتة ومتزايدة من العبيد

ولقد حاولت البرتغال أن تقوم بعملية توطين في انجولا ، واستقدمت بعض الأسر من الفلاحين ، وأعطتهم بعض السلفيات ، وأنشأت هناك بعض الحصون وبعض الكنائس ، ولكن هذه السياسة فشلت على طول الخط ، وقامت البرتغال بعد ذلك بتحويل أنجولا إلى مناطق لنفى المجرمين وأنشأت فيها بعض السجون . التي أخذت أعداد المجرمين واللصوص تتزايد فيها ، كما نفت إليها الحكومة البرتغالية الكثير من المتسولين ، والجنود المتمردين، وكانوا يزوجونهم ببعض الساقطات قبل تصديرهم من موانى البرتغال إلى القارة الأفريقية . ولم يكن من السهل على مثل هذه المجموعات أن تتمكن من إقامة « مجموعة أوربية » لها اعتبارها على القارة الأفريقية ، وبذلك اعتبرت تجربة الاستعمار البرتغالي في انجولا تربة فاشلة ، وظلت حكومة البرتغال تحكمها بقوة السلاح ، دون أن تتمكن من رفع مستوى الأهالي فيها

ولقد استمر نشاط البرتغاليين على مناطق الساحل الأفريقي . مع استمر أنهم في الملاحة حول رأس الرجاء الصالح ، ودخولهم إلى المحيم الهندي ، وظور المان في موزمبيق ، وفي كلوة إلى الشمال .

النظام البرتغالى في موزمبيق وشرق إفريقية

ولقد وصل البرتغاليون إلى سواحل إفريقية الشرقية وهم في طريقهم إلى الهند ، ووجدوا أن تجارة الهند والشرق الأقصى هناك كانت مركزة في أيدي العرب والمسلمين ، ولذلك فإنهم قرروا ضرورة تخريب القواعد العربية والإسلامية في هذه المنطقة ، وكما شرحنا ، حتى يتمكنوا من السيطرة على التجارة . أما بالنسبة لكلوة ،

تلك المدينة العربية المزدهرة ، فقد قام البرتغاليون بالهجوم عليها ، ثم نزلوا إلى شوارع المدينة ، حيث وقعت معركة حامية في الطرقات وحتى في المنازل ، وانتقل البرتغاليون فيها في عملية القتل وذبح الأهالي.

ثم استمرت العملية في شكل سلب ونهب لكل ما تصل أيديهم إليه ، ثم أشعلوا النيران في المدينة، وتركوها وهم مسافرون ، وكأنها حميم صغير ، بعد أن كانت مركز حضارة وازدهار. ولقد امتدت سلطتهم على طول الساحل الشرقي لإفريقية حتى رأس الجادو ، والتي أصبحت تمثل الحد الشمالي لهم ، أما في الجنوب منها ، فإنهم جعلوا موزمبيق المركز الرئيسى لسلطتهم، ولتجارتهم مع هذه المناطق وسرعان ما أصبحت موزمبيق هي مركز السفن التي تذهب إلى الهند ، أو ترجع منها في طريقها إلى البرتغال ، ولقد سمع البرتغاليون فيها عن ثرائها نتيجة الوجود الذهب فيها . وإذا كان البرتغاليون قد حاولوا السيطرة على تجارة الشرق الأقصى من هذا الموقع ، إلا أن التهريب قد استمر بشكل واضح ، حتى أصبحت دوريات البرتغاليين تمثل عبئاً مالياً على الدولة .

ولقد شهد ساحل شرقي أفريقية ظهور حركة مقاومة وطنية عنيفة ضد مجيء البرتغاليين ، وقام الزعيم أمير علي في عام ١٥٨٥ ، بتجميع كل المدن الساحلية تحت قيادته في حركة كفاح وطنى ضد البرتغاليين ، ولقد تمكنت بعض قوات البرتغاليين، ومساعدة بعض المجندين من قبائل الزمبا، وكذلك عدد من العميد المسلحين ، من خاصرة القائد الإفريقي في مدينة مميه ، ولكنه تمكن من الهرب ، واستمر في جهاده ، حتى وقع في أيدى البرتغاليين ، ولقد قام البرتغاليون في عام ١٥٩٣ ، ببناء حصن يسوع ، على الساحل الشرقي لإفريقية، ثم جاءت الوكالات التجارية لكى تستقر في كل من كلوة وبمبا وزنجبار، وتم قرب هذا العام إنشاء جمرك في مدينة مميسة ، لكى تمر فيها كل تجارة شرق أفريقية، وبدأت من هذه المواقع عمليات تنصير بعض الأهالي .

وبعد إقامة بعض الحصون على الساحل بدأ البرتغاليون في إرسال حملات إلى الداخل ، لاستكشاف أماكن وجود الذهب ، وكانت هذه الحركة تهدف في نفس الوقت أمر القضاء على قوافل العرب والمسلمين التي تسير في داخل القارة وهكذا أصبحت موزمبيق أحد المواقع الرئيسية ، والتى تنتشر فيها سيطرة البرتغال على شرق أفريقية، وجنوب هرمز ، عند مدخل الخليج الفارسي ، وصوب الهند نفسها . وكان بعد موزمبيق عن لشبونه يعطى الحاكم العام البرتغالى فيها سلطان واسعة ، وإن كان يمارس هذه السلطات تحت سيطرة نائب الملك المعين في الهند. وكانت لديه في موزمبيق قوات عسكرية ، وبعد بناء حصن سان سباستيان في عام ١٥٥٠ ، أصبح هذا الموقع العسكرى هو المسيطر على بقية المواقع العسكرية البرتغالية على طول الساحل الشرقى للقارة الأفريقية، وتم بناء كنيسة ومستشفى داخل هذا الحصن .

ولقد تمكن البرتغاليون من إنشاء بعض المواقع في الداخل ، منذ عام ١٥٥٠ مثل تيتي والتي كانت تبعد عن الساحل بمسافة ٢٥٠ ميلاً وكانت مركزاً لتجارة الذهب من الداخل، وكذلك بعض الوكالات التجارية وخاصة في كليماني ، ولقد اهتم لورنز وماركيز بهذا القطاع من المستعمرات البرتغالية ، وشجع فيه التجارة في الذهب والعاج.

وحين وصل الملك سباستيان إلى عرش البرتغال ، فى عام ١٥٦٨ أخذ يفكر في ضرورة إنشاء مستعمرة كبيرة في هذه المنطقة من شرق أفريقية واستخده الحملات العسكرية من أجل التوغل صوب الداخل ورغم المعارضة الشديدة التي لقيها في مجلس البلاط ، أصر الملك على ضرورة الزحف صوب الداخل ، والسيطرة على مناجم الذهب ، وطرد العرب والمسلمين منها ، وتدعيم وجود البعثات الدينية المسيحية ، ولقد تمكن في العام التالى من إرسال حملة عسكرية ، بقيادة فرانشيسكو باريتا ، إلا أنها صادفت الكثير من المصاعب ، مثل كثرة الأمطار والحميات، ومقاومة الأهالى ، ولقد أدى هذ الصراع مع الأهالى إلى ضياع معظم

رجال الحملة ، والذى لم يعد منهم إلى الساحل وبعد عام كامل سوى مالتي رجل وبعد أن مات قائد الحملة بالحمى.

وبعد ذلك خمس سنوات خرجت حملة برتغالية جديدة في عام ١٥٧٤ صوب منطقة وسارت صوب الداخل ، وصوب مناطق استخراج الذهب ، ولكن هذه الحملة وجدت أن استخراج البرتغاليين أنفسهم للذهب سيكلفهم أكثر من شرائه من الأهالي ، بطريق مباشر ولقد اتجهت هذه الحملة بعد ذلك شمالاً . الزمبيزى ، وفكر رجالها في العمل في استخراج الفضة . هذه المنطقة ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، وبعد أن ترك القائد مائتي وحل الحراسة أحد المواقع ، حتى يعود من موزمبيق ، محم الأهالي على هذه الحامية الصغيرة ، وأفنوها عن آخرها وبذلك فقد التاج البرتغالى كل أمل في استخراج الذهب والفضة من المناطق الداخلية الشرق أفريقية ، واكتفى بفرض ضريبة معينة على ملوك هذه المناطق ، وتركيم يستخرجون المعادن النفيسة بأنفسهم ، وكانت بعثات هؤلاء الملوك تصل إلى موزمبيق ، كل ثلاث سنوات، وتقدم الضرائب للبرتغاليين ويقدم لها البرتغاليين هدايا رمزية من المنسوجات القطنية ومن الخرز.

ومع مرور السنين واستمرار العمل بنظام احتكار الدولة للموارد تطور النظام إلى عمليات منجمة للتهريب ، وحتى من جانب ضباط الدولة ، وقاطين سنتها أنفسهم ، فاضطرت حكومة البرتغال إلى أن تعهد بمنح أجزاء من هذه المستعمرة وغيرها من المستعمرات كذلك إلى شركات برتغالية ، تحصل على تصريح بالعمل في هذه المناطق ، تغير تقديمها مبالغ سنوية محددة . الأموال للدولة ، وكانت الشركة التي حصلت على حق العمل في هذه المنطقة هي شركة شرق أفريقية التجارية، والتي قدمت قيمة من أرباحها إلى حكومة لشبونة كل عام. ولكن هذه الشركة خضعت كذلك وفي القرن السابع عشر لهجمات شركات استعمارية من أخرى ، قامت دول أوربية أخرى مثل إنجلترا وهولندا بإنشائها ، كما حضت العوامل الضعف والانحراف التي سادت في هذا المجتمع الاحتكاري فتم حلها بعد مرور عشرين عام فقط على تأسيسها.

وأخيراً ، وفي ظل هذا النشاط البرتغالى الضخم على سواحل القارة الأفريقية سواء في غرب أفريقية ، أو في مناطق الكنغو وأنجولا وكذلك في مناطق موزميق وسواحل أفريقية الشرقية . علينا أن نذكر ذلك الدور الذي قامت به البعثات المسيحية وفي شكل صاحب ومن أجل هداية النفوس وكسب الأهالى إلى الإنجيل والدين المسيحى ، ولا شك فى أن هذه الحركة كانت قوة دعم وتأييد معذوق المساعدة حركة الاستغلال المادى والتجارى، والتى قام بها رجال الاستعمار البرتغاليين ، من أجل نهب القارة الأفريقية ، ونهب الرجل الأفريقي .

وفي هذا المجال ، وبعد أن وصلت البرتغال إلى موارد القارة الأفريقية ، وبعد أن كانت سفنها قد وصلت إلى الهند، جاءت دول أوربية أخرى لكن تنزل إلى نفس الميدان ، وتقوم بدورها بالالتفاف حول القارة الإفريقية ، وكما فعل البرتغاليون ، من أجل الوصول إلى نصيب فى التجارة العالمية بين الشرق والعرب : وستقوم هذه الدول بالاحتكاك كذلك بالقارة الإفريقية، حتى تتمكن من أن تصل على نصيب من موارد هذه القارة .

وإذا كان البرتغاليون قد احتكروا القارة الإفريقية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فإن طلائع الدول الأوربية الأخرى سوف تصل إلى هناك مع القرن السابع عشر.

وإذا كانت وسائل عمل البرتغاليين ، والتي تتمثل في فرض نظام الاحتكار هو المنهج الذي سارت عليه البرتغال ، لاحتكار التجارة والموارد ، فمن الطبيعي أن يكون شعار القادمين الجدد هو حرية التجارة والباب المفتوح للجميع ، أى الحرية الأوربيين، وفي عملية استغلال الأفارقة وأبناء الهند والشرق الأقصى ، إنها الشركات الاستعمارية الأوربية ، وفى عصر سيادة التجارة وحرية التجارة ، حتى في البشر ، وفى شكل استرقاق الآدميين ، والتعامل معهم على أنهم عبيد ، وبقوة الأسلحة النارية والبارود.

الفصل الرابع

التنافس الأوروبي على قارة أفريقيا

- الشركات الستعمارية الأوروبية.

1- الإسبانيون

2- البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون

3- الشركات الهولندية

4- الشركات الأنجليزية

5- الشركات الفرن

في الوقت الذى عملت فيه البرتغال على الالتفاف حول القارة الإفريقية للوصول إلى الشرق الأقصى كانت هناك محاولات من جانب دول أوربية أخرى مثل أسبانيا ، حاولت بها الوصول إلى الشرق الأقصى عن طريق الملاحة صنوب الغرب ، حقيقة أن هذه المحاولات كانت لا تمس تاريخ القارة الأفريقية بشكل مباشر ، ولكنها كانت تمثل منافسة واضحة للبرتغال ، والتي أصبحت لها مصالح على سواحل القارة الأفريقية، ومع انتشار حركة التوسع الاستعماري في العالم، نجد أن هناك منافسين حدد قد ظهروا أمام البرتغال وأسبانيا ، وأن هؤلاء المنافسون كانوا يمثلون دول غرب أوربا ، والتى نزلت إلى ميدان التوسع الاستعماري كذلك، وبخاصة في القرن السابع عشر ، وإن كانت قد عملت في هذا الميدان بطرق ووسائل ونظم مختلفة عن تلك التي كان البرتغاليون ثم الأسبان قد وضعوها لأنفسهم : المنافسة إلى نشأة شركات استعمارية أوربية .

1- الأسبانيون :

بدأ الإسبانيون تجربتهم الاستعمارية في العالم في عهد فرديناند و ايزابيلا ، ونجح كريستوف كولومب ، وهو بحار من جنوا ، في أن يحصل منها على مساعدة وعينوه أميراً للبحر، ونائباً للبحر، ونائباً للملك على كل البلاد التي يتم اكتشافها ، وكذلك الحق في عشر الجواهر والذهب والفضة والتوابل وأى سلع يجدها في البلاد التي يتم اكتشافه١٩ ، وقد وعدهما كريستوف كولومب بأن يستخدم الكنوز التي يجدها في عملية تخليص الأراضي المقدسة من أيدى المسلمين، وكانت التجارة وعمليات النهب تسير جنباً إلى جنب مع الوعود المقدسة ، وفي ظل إيمان عميق .

ولكن كريستوف كولومب ، صار متجهاً إلى الغرب ، لم يصل إلى الهند ، ولم يصل إلى الصين ، ولا بلاد الذهب ، بل وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا، وكانت هذه الجزر ، وهى جزر الهند الغربية ، بداية التحرب التوسع الاستعماري الأسبانى فى العالم الجديد، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وحيث لا تزال البصمات الحضارية الأسبانية موجودة حتى الآن. فلقد ورت الإسبانيون إمبراطورية

الإنكا ، وإمبراطورية الإزائكة ، وأنشئوا المستعمرات واختلطوا بالهنود الحمر ، ونشأت مجموعات وشعوب مخلطة ، وجاءوا إلى أمريكا اللاتينية بأعداد ضخمة من الزنوج الأفارقة للعمل في المزارع هناك .

ويهمنا من ذلك أن نزول أسبانيا إلى ميدان التوسع الاستعماري ، في نفس الوقت الذي عمل فيه البرتغاليون فى هذا الميدان ، كان يمثل تنافساً واضحاً بين الدولتين ، وكان البابا قد منح البرتغال كل الأراضى التي تقع على طريق الهند وأرسل الملوك الكاثوليك من أسبانيا بدورهم إلى الفاتيكان ، لكي يشرحوا للبابا أن ممتلكاتهم الجديدة هى انتصار كبير للمسيحية ، ولكى يطلبوا من الأقاليم ، ولقد وافق البابا اسكندر السادس ، وكان أسبانياً على هذه الطلبات وأصدر مرسوماً منح به ملك وملكة أسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التي أعطاها لملك البرتغال في اكتشافاتهم الجغرافية.

ثم أصدر بعد ذلك مرسوماً ثانياً لمنع أى طعن من هذا الجانب أو ذاك وقسم الإمبراطوريتين البرتغالية والإسبانية بخط يمر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبي، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات والرأس الأخضر ، فأصبح كل ما يقع إلى غرب هذا الخط من نصيب أسبانيا ، وكل ما يقع إلى الشرق منه من نصيب البرتغال . وبعد أن طعنت برشلونة في هذا التقسيم حصلت من أسبانيا ومن البابا على مرسوم جديد ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر، وذلك في عام ١٤٩٤، وهكذا استمرت الطرق الغربية في أيدى الأسبانيين والشرقية في أيدى البرتغاليين، ولكن أحداً لم يفكر في ذلك الوقت فى أن هذا الخط سوف يمر على أمريكا الجنوبية ويقسمها وبشكل يجعل واجهة هذه القارة، وهي البرازيل مستعمرة برتغالية، لقارة سوف تصبح كلها من المستعمرات الإسبانية.

ولقد تميز الأسبانيون في أمريكا بالعنف والقسوة، وانتصروا هناك على الهنود الحمر، وكذلك على البعوض والزواحف والحميات ووحوش الغابات، وكانوا قد

لمرسوا القسوة في حروبهم ضد المغاربة وضد المسلمين، قبل طردهم من بلادهم وسمحوا لأنفسهم فى العالم الجديد بكل شي وبدون تردد.

وكما كانت عمليات البرتغال منظمة بمرسومات ملكية تصدر من لشبونة وتخضع هذه العمليات لسلطة الدولة وضباطها ومفتشيها وكبار الموظفين فيها، كانت كذلك مشروعات الإسبانيين في عملية التوسع في أمريكا الوسطى والجنوبية فكانت هناك المراسيم الملكية، وكانوا ينزلون إلى الأراضى وهم يحملون علم الدولة ويعلنون ضم الأراضى للدولة، ويقيمون حكماً هنا وهناك خاضعاً لدولة إسبانيا، وكان هدف الإسبانيين هو اكتشاف الأراضى الجديدة، والإقامة فيها بأسبقية وأولوية الوصول إليها وحكمها، وكذلك استغلال الأراضي والمعادن النفيسة والمعيشة مع ألقاب نبل ضخمة، وفي ظل بحد يشير الغيرة، وامتدت هذه مشاركة الإمبراطورية من فلوريدا وكاليفورنيا، حتى شيلي، وعلى طول عشرة آلاف من الكيلومترات، وأفادت أسبانيا من هذا الخط الطويل من المستعمرات.

ولقد تمكن الإسبانيون من حكم هذه المناطق الشاسعة، بالسيف والنهب والقتل، وبغيرهما من الوسائل التي كانت سهلة وأسهل بكثير من إدارة وحكم شعوب غلبت على أمرها، ولم يتورع الاستبانيون عن أي وسيلة للوصول إلى أهدافهم، والتي كانت تتلخص في الحصول على الذهب وشحنه على السفن وكان الحكام الأسبانيون الأوائل يقسمون الكنوز بين الجنود، ويقسمون الأرض بين الضباط، ونقلوا نظم أسبانيا كما هى إلى هذه المناطق، ومع الزمن، حلت السلطة الملكية محل سلطة هؤلاء القادة والغزاة، وخضعت هذه المناطق الحكم أسبانيا، وكان هناك في قشتالة مجلس للهند وكان يشرف على الأمور العامة لهذه المناطق، وبعد القوانين لها، ويعتبر فى نفس الوقت محكمة للاستئناف، ويتدخل في كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد. وفى أمريكا، وكان نائب الملك هو الذي يهيمن على شئون السلم والحرب في البلاد.

ولقد شهد العالم مشكلة الهنود الحمر، ثم مشكلة قدوم الزنوج الأفارقة في شكل عبيد، وذلك في نفس الوقت الذي كانت هناك مشكلات الحكم الاستعمارى

الإسباني، والتنافس الاستعماري بين الدول الأوربية وبعضها. ولقد قضى على الأهالي بشكل كامل فى مناطق بأكملها، كما حدث في هاياتي، وقام المدافعون عن الهنود الحمر وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود الحمر دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة، أو ضرورة الاحتفاظ بالأيدى العاملة اللازمة للمستعمرات، أو زيادة عدد السكان المسيحيين في العالم. ولقد تعاون التاج مع الكنيسة في عمليات التهدئة، وإن كانت مشكلة العمل الإخباري، أو السحرة، ظلت موجودة، وتدخل التشريع من أسبانيا، وكان مشاركة دائماً في صالح العملية الاستعمارية. فاتجهت الأنظار إلى القارة الإفريقية لإحضار الزنوج والعبيد، حتى تتمكن القوى الاستعمارية من أن تستمر في عملية مدد من الاستغلال.

ولقد بحث المستعمرون الأسبانيون عن مناحم الذهب والفضة، وغسلوا رسال الأنهار لكي يحصلوا على التبر، ووجدوا بعض الذهب، وكثيراً من الفضة في المكسيك أولاً، ثم في بيرو بعد ذلك. ووجدوا الزئبق في بيرو نفسها، واستخدموه في معالجة الذهب وفصله عن الفضة، فتزايدت كميات الإنتاج بشكل مذهل. وكانت المناجم ملكاً للتاج الذى يمنحها للمستغلين، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الإنتاج. وكان هذا المعدن ينقل بحرياً من بيرو إلى بنما، ثم على ظهور البغال لعبور البرزخ، والشحنه من جديد في سفن أسبانية متسعة وبطيئة، وحقق الإنتاج آمال أسبانيا، فكان يصل إلى خمسة أو سنة أطنان من الذهب، وثلاثمائة من الفضة في كل عام.

أما جزر الأنتيل فإنها لم تلعب أي دور للحصول على المعادن، واتجه المعمرون فيها إلى استغلال الزراعة، وبخاصة قصب السكر، وكان يعطى السكر والروم، وكان إنتاجه يصل في قيمته إلى ما يقرب من الذهب، ويقيم كذلك بالذهب. وكان ميدان الإنتاج الزراعى فى جزر الأنتيل وبلاد أمريكا الوسطى مورد دخل كبير للمعمرين الإسبانيين .

وكانت كل منتجات أمريكا الأسبانية ترسل إلى أسبانيا نفسها، والتي احتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات، إلا فيما يتعلق بتجارة الرقيق، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو في أمريكا، حتى ولو كان ذلك الإصلاح ما يصيبها من عطب. وقامت أسبانيا بعد ذلك يفتح عدد معين من الموانسى للتجارة، حتى تمنع التهريب. ولكن عمليات التهريب تزايدت مع الزمن، وبشكل واضح فكان التجار يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب: فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المغتربة أو المشحونة فى تصريحاتهم الرسمية، بها بدعوا في عمليات التهريب، ووجدوا في داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركهم في هذه العمليات، وبدأت السفن تفرغ حمولتها في البحر قبل دخولها إلى ميناء إشبيلية ويتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء واتصل المهربون الإسبان مهربين أجانب، كانوا يقومون بنشاط كبير في خلجان العالم الجديد، الأمر الذى أدى إلى لقد كانت أسبانيا في منافسة واضحة مع البرتغال، ومن عمليات التهريب دلت على وجود منافسة من نوع جديد وضد سيطرة الدولة على التجارة والملاحة، وتقوم بها عناصر لا تخضع لسلطة الدولة الأسبانية، وربما حظيت حماية ثلث تجارة العالم الجديد من أيدى هيئة التجارة الإسبانية مقنعة من جانب دول أخرى في غرب أوربا.

ولقد تمكنت أسبانيا، في أثناء القرن السادس عشر السيطرة على جزء كبير من أوربا، وظهر ذلك بوضوح فى عهد شارل الخامس، أو شارلكان، حفيد الملوك الكاثوليكيين، والذى سيطر على اسبانيا ونابولى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط، وأضاف إليها بقية إيطاليا والأراضي المنخفضة، الفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا، والنمسا والإمبراطورية المقدسة. ولقد أصبح سيداً على عالم لا تغرب عنه الشمس، ووصلت أسبانيا إلى أوجها في عصر ابنه فيليب الثاني، والذي ضم إليه البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية، بعد معركة وادي المخازن في المغرب الأقصى، فأصبح فيليب الثاني ملكاً على الشبونة وميلانو، وجنوا وبروكسل، وبالرمو ومكسيكو.

ولكن هذه العظمة من ناحية الحكم، عاصرت كذلك ظهور مبادئ الإصلاح الديني، وظهور المذاهب البروتستانتية، ثم هجرة الكثيرين من أبناء أوربا إلى العالم الجديد، بحثاً عن حرية العقيدة. وإذا كان إسبانيا قد استعانت في ذلك الوقت بجماعة اليسوعيين الجزويت» من أجل نشر المذهب الكاثوليكي في المناطق الخاضعة لها فيما وراء البحار، وبخاصة في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، فإن نوع المهاجرين في أمريكا الشمالية كان يميل بشكل واضح في أغلبيته نحو أبناء مذاهب الإصلاح، والمذاهب البروتستانتية. وكما كانت هذه الإمبراطورية الإسبانية ضخمة وقوية، إلا أن قطع أوربية كثيرة من هذا البنيان الضخم كانت رقيقة ولا يمكنها أن تقاوم الأطماع الخارجية، ونمو المصالح والحركات، لفترة طويلة.

٢ البرتغاليون والانجليز والفرنسيون :

لقد تمكن البرتغاليون كما ذكرنا من الوصول إلى الهند، ومن إنشاء المراكز التجارية على سواحل القارة الإفريقية وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل وقد تحول المحيط الهندى إلى شحر برتغالى واحتفظت لشبونة باحتكار التجارة فيه، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه إلا بعد تزويدها بتصريح رسمى من ملك البرتغال، ومع إنشاء الحصون على السواحل الإفريقية، ثم إعداد المخازن فيها وتركوا في كل منها بعض التجار مع بعض العمال وبعض الجنود، وهكذا أقام البرتغاليون في إفريقية الشرقية، والأجواد فى سوفاله وموزمبيق وفي جنوب مدغشقر، كما أقاموا فى سومطره عند مدخل البحر الأحمر، وفي هرمز، عند مدخل الخليج الفارسى، وفى مسقط، وأصبحت لهم مواقفهم على سواحل الهند نفسها. ولقد امتدت مراكز البرتغاليين بعد ذلك في آسيا حتى وصلوا إلى العين وجزر الهند الشرقية.

ولقد أصبح البرتغاليون مسيطرين على تجارة التوابل واحتكروا العمليات التجارية فى المحيط الهندى واحتكرت الدولة البرتغالية تجارة الفلفل، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل، وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره ، وحتى مهر ابنته عيناً من الفلفل . وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة، في صناديق مقفلة ويقوم

بيت التجارة ببيعها ويحصل منها على نسبة تتراوح بين ثلاثين وستين في المائة من ثمنها كضريبة للخزانة. وكانت العملية إذن خاضعة لسلطة الحكومة أو السلطة الدولة، وفى شكل احتكار؛ وكانت معرضة بالتالى وفى أوقات الضعف لكي تخضع لعمليات التهريب.

وكان من نتيجة توسع البرتغاليين صوب الشرق ، ويشكل مستمر ، وفي نفس الوقت الذي أخذ الإسبانيون فيه فى التوسع صوب الغرب ، حتمية تقابل الطرفين ، وبشكل يختم ضرورة رسم . خط آخر على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية ، لتقسيم مناطق النفوذ بين إسبانيا والبرتغال ، في المحيط الهادي هذه المرة .

ورغم أن ماجلان كان برتغاليا، إلا أنه عمل في خدمة شارل الخامس ؛ وتمكن من القيام برحلة إلتف بها حول العالم : فخرج إلى المحيط الهادى حتى وصل جزر سان لازار ، وهى التي قتل فيها ماجلان في معركة مع الأهالى ، وقام البرتغاليون بأسر بقية سفنه ولكن إحدى السفن تمكنت من الوصول إلى إسبانيا؛ بعد رحلة دامت ثلاث سنوات فيشت كروية الأرض، وظهر التنافس الإسباني البرتغالى على منطقة المحيط الهادى. وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى ملقه وكانوا هناك أقوى من الإسبانيين. وكان شارل الخامس في حاجة شديدة إلى النقود، فاضطر إلى التنازل عن مطالبه نظير ٣٥٠,٠٠٠ دوقية من الذهب ولكنه لم يتخل عن جزر سان لازار، والتي سميت الفليبين نسبة إلى ولى العهد، والذي سيصبح فيليب الثاني فيما بعد، وكان هذا أساساً لإقامة بعض الأسبانيون في هذه الجزيرة، ونشأة مدينة مانيلا عاصمتها فيما بعد.

وهكذا أصبحت كلاً من إسبانيا والبرتغال تسيطر على إمبراطورية ضخمة في العالم، وزاد وضوح هذه الهيبة الكبيرة مع انضمام حكومة البرتغال إلى الحكومة الأسبانية بعد مقتل ملك البرتغال فى معركة وادى المخازن فزادت ضخامة هذه القوة الاحتكارية للتجارة العالمية، وعبر المحيطات، لكى تركز هذه السلع في شبه جزيرة إيبريا، ثم تعيد توزيعها على القارة الأوربية مع مصبات الأنهار. مصب نهر الراين

في الأراضي المنخفضة، والأنهار الأخرى على بحر الشمال، لكى تقبل منها هذه السلع إلى بقية مناطق التوزيع فى قلب القارة وفى مناطق الإمبراطورية المقدسة، وإذا كانت الدولة قد احتفظت بحق احتكار لتجارة في شبه جزيرة إيبريا وتحت سلطتها المباشرة، فإن مناطق توزيع هذه التجارة في أوربا، وبخاصة في الأراضي المنخفضة، أخذت في العمل ضد مصلحة الدولة الأسبانية، وإذا كانت حكومة أسبانيا قد دعمت نفوذها في شبه جزيرة إيبريا سلطة الكنيسة والكرادلة الكاثوليك فإن الأراضى المنخفضة كانت تضم الكثير من اليهود المطرودين من أسبانيا، والذين انتقلوا إلى هناك للتجارة، وكانت كذلك ميدان عمل خصب لمذاهب الإصلاح البروتستانتية. إن الروح الجديدة في مناطق التوزيع تعمل منذ السلطة والشعارات المرفوعة في أسبانيا. وحتى هذه السلطة في بلادها المسيطرة كانت تقاسي من عمليات تهريب السلع والتى كانت الدولة تحتكر نقلها والتجارة فيها. إنها بداية الظهور تجاه حرية التجارة في الأراضي المنخفضة، وبشكل يتعارض مع احتكار التجارة الذي فرضته الدولة الأسبانية.

هي سلطة ولم تكن الأراضي المنخفضة. المنافس الوحيد للدولة الأسبانية، بل كانت تمثل أحد أقاليمها الخاضعة لها وستحاول الحصول على استقلالها عن أسبانيا، ورغم تشدد الأسبانيون في حكم الأراضى المنخفضة وكان هناك كذلك الإنجليز والفرنسيين كمنافس لأسبانيا وللنظام الذى وضعته لاحتكار التجارة العالمية واحتكار نقل سلعها. وكانت كل منهما تحاول كذلك الوصول إلى الهند، لي الحصول على الأقل على نصيب من الأراضى الجديدة، ومنتجات هذه الأقاليم.

كان الإنجليز يعارضون احتكار الإسبانيين والبرتغاليون التجارة العالم وشاركهم الفرنسيون في هذه المشاعر، حتى أن فرانسوا الأول أعلن أن الشمس تشرق للجميع، وطالب بعرض وصية آدم التي تحرمه من الحصول على نصيب في تقسيم العالم. وكان الطريقة العملية لإعادة التوازن تتلخص في انتزاع الثروات انتزاعاً من المستعمرين ومن مستعمراتهم، فهل هذه هى الفرسنة ؟ لقد حاول بعض

الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقناصة البحرية، وذكروا أن القراصة هم مجرد قطاع للطرق البحرية، وأما القناصة فتعترف بهم دولهم رسمياً وتعطيهم الحق الرسمي في وقت الحرب، لأسر سفن الأمة المعادية، والاستيلاء عليها.

ولقد قام القناصة البحريين بسنتهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من جزر الأنتيل، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى العالم الجديد وكثيراً ما قاموا بالنزول إلى الأماكن والمراكز التي تخزن فيها الضائع، والاحميها كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية، التي كانت تخاطر من وقت إلى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي.

ولقد قام القناصة الفرنسيون مباحمه مغازه هافانا وحولوا الأماكن القريبة من حزر كناريا والخالدات إلى مناطق عمليات وصيد أخرى. وكانت أهم العامراتهم في عام ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من بين ثلاث سفن أسانية كانت تحمل إلى إسبانيا كنوز مونتزوما، وعثروا فيها على أواني ذهبية وفنية وأحجار كريمة. وظهر قناصة آخرون أمام دير في المحيط الهندي. أما الإنجليز، فكانوا يراقبون السفن الأسبانية أمام خليج قادس وقام هرگز بالاستيلاء على حمولات كاملة من العبيد، وكان يبيعها بعد ذلك حسابه في أمريكا. وقام ابن عمه فرانسيس دريك بالنزول في أمريكا الوسطى، وبمهاجمة قوافل البغال التي كانت تحمل الذهب والفضة من بيرو، واستولى عليها، وعاد إلى بليموث بالسبائك وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم، حتى تتمكن من تطويق إسبانيا، وساهمت فى مشروع الحملة. وقام دريك بعبور مضيق ماجلان، ودمر منشآت الأسبانيين من شيلى إلى كاليفورنيا، واستولى على سفينة أسبانية محملة بالذهب وفرض غرامة كبيرة على مانيلا، وعاد إلى إنجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وفى هذه الرحلة حول العالم قام دريك بثمانين هحمة. وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه، إلا أنها كافأته في نفس الوقت. وكان مقرباً منها. وقام بدوره في هزيمة الأرمادا أمام بليموث في عام ١٥٨٨ .

ولا شك أن عمليات القرصنة قد أدت من ناحية إلى منافسة الأسبانيين والبرتغاليين في عملية سيطرتهم على العالم، وفتحت الطريق أمام كل من إنجلترا وفرنسا في الحصول على مناطق جديدة تستعمرها على خريطة العالم، كما أنها فتحت الطريق أمام سفن هاتين الدولتين للعمل على تحطيم نظام احتكار التجارة لكل من إسبانيا والبرتغال، وسمحت لسفن هاتين الدولتين للعمل على تحطيم الدولتين، مع بقية السفن الأوربية، للعمل على نقل العبيد من القارة الإفريقية إلى أمريكا والعالم الجديد.

أما رحلات جان وسباستيان كابوت للوصول إلى الهند عن طريق الشمال فإنها وصلت إلى نيو فاوندلاند وهى مناطق غنية بالأسماك، ووصلت بعثات أخرى إلى جرين لاند، وبدعوا هناك في الاتصال بشعوب الإسكيمو أما محاولاتهم الوصول إلى الهند عن الطريق الشمالي الشرقي، فإنها انتهت إلى داخل الأراضي الروسية وفكروا من هناك في إمكانية الوصول إلى الهند ثم أخذ المغامرون الإنجليز يصلون إلى مستعمرة فرجينيا، والتي كانت أولى المستعمرات الثلاثة عشر، والتي ستكون بعد استقلالها الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الفرنسيون، فإنهم كانوا يعيشون مرحلة صعبة في تاريخهم، نتيجة لانتشار الحروب الدينية، وحروبهم مع أسبانيا، ورغم أن أطماع الفرنسيين كانت مركزة في ذلك الوقت على إيطاليا، وأنهم كانوا يفضلون المعيشة في بلادهم الجميلة على الهجرة إلى الخارج، إلا أن بعض العناصر المغامرة من بينهم ذهبت إلى البعيد بعيداً عن سواحل فرنساه ووصلت إلى نيوفوندلاند وقام حاك كاريتيه بالوصول إلى سب نهر سان لوران وأخذ الفرنسيون يتفاهمون مع الهنود الحمر، وكان ذلك أساساً لنشأة كل من كوبيك ومونتريال فيما بعد، إنها كندا.

ولا شك في أن اشتراك كل من الإنجليز والفرنسيين، وغيرهم في عملية منافسة احتكار الإسبانيين والبرتغاليين للتجارة العالمية سيؤدى إلى تحسين طريقة عمل أبناء هذه الدول في صراعهم ضد النظام الاحتكاري، وسيؤدى إلى نشأة

شركات متعددة هولندية وانجليزية وفرنسية تقوم بعملية الاستعمار، وعملية التجارة مع المناطق الواقعة فيما وراء البحار، بدلاً من الدولة، وإن كانت هذه الشركات تتمتع بسلطة الدولة نفسها في تعاملها مع الأهالي، وحماية الدولة لهذه الشركات فى حالة اصطدامها مع شركات أخرى من دول أخرى، كما أنها تخفف من وقع الصدمة في حالة تصادم مصالح هذه الشركة مع المصالح الفعلية السلطة الدولة الاحتكارية في كل من أسبانيا أو البرتغال . وستكون لهذه الشركات علاقة مباشرة بالقارة الأفريقية كما أنها سوف تعمل على عمليات نقل العبيد من القارة الأفريقية إلى العالم الجديد.

3- الشركات الهولندية :

كانت هولندا تمثل إقليماً غنياً، تمكن من الحصول على استقلاله، بعد أن اختار مذهب الإصلاح الدينى، وفى ذلك الوقت كانت هولندا قد استضافت اليهود الذين كانوا قد طردوا من البرتغال كما استضافت البروتستانت الذين قامت فرنسا بطردهم وكانوا من أصحاب رؤوس الأموال، ووصلوا بأموالهم إلى هولندا. وكان الهولنديون كذلك بحارة، وعاش أهلها منذ فترة طويلة على صيد الأسماك، حتى تحولت أمستردام إلى قاعدة بحرية للصيد والتجارة، وفي مطلع القرن السابع عشر، وصل عدد البحارة في هولندا إلى ما يقرب من ١٦٠,٠٠٠ بخار، وذلك في الوقت الذي بلغ فيه عدد السفن ما يقرب من عشر آلاف سفينة. ومع تطور النظام الرأسمالي، أصبحت هولندا تسيطر على عمليات التأمين المربحة، وتعمل على استغلال رؤوس أموالها فيما وراء البحار.

وفكر الهولنديون في أن يحصلوا على نصيب من ميراث البرتغاليين، في الميدان الاستعماري وإذا كانت هرمز قد عادت فى هذا الوقت إلى فارس، والبنغال إلى السادة المغول، ومسقط إلى إمامها العربي فإن الأراضي المنخفضة حاولت الاحتفاظ بأهم أجزاء هذه الإمبراطورية مع مراكز الملابار في صورات وكوشين وسيلان وملقه وحزر التوابل الشهيرة، أى جاوه وسومطره. ولقد تطلب أمر استغلال هذه الإمبراطورية الشرقية إنشاء محطات على طول الطريق إلى الهند محطات بحرية،

ومراكز لإنشاء السفن، ومخازن للتموين، ولقد تمكن الهولنديون من انتزاع رأس الرجاء الصالح من البرتغاليين، وانشأوا فيها نقطة لتموين سفنهم.

ولقد حاول الهولنديون كذلك أن يعملوا في الاتجاه الغربي أي في سورينام في أمريكا الجنوبية، وكذلك حول نيو امستردام، التي أنشأوها على خليج مديسون، والتي سوف تصبح فيما بعد مدينة نيويورك وهذا العمل في الميدان الاستعمارى لم يكن من مسئولية الدولة الهولندية، بل كان يمثل عمل مجموعة خاصة من الرجال تمكنت من الحصول على امتيازات عامة وقت وصول الأراضي المنخفضة إلى الاستقلال. وكان هذا هو عصر انتصار الشركات، والتي كانت دواقعها ووسائلها مالية أكثر منها سياسية: فكانت الأقاليم المتحدة ترغب في المتاجرة، وكسب الثروة، وكانت وسائلها هي رؤوس الأموال والبنوك والشركات وكانت رؤوس الأموال متوفرة في هولندا، وتجمع البنوك في بنك واحد، هو بنك امستردام منذ عام ١٦٠٩، فتمكن بذلك من أن يواجه كل العمليات الرأسمالية، بل أصبح أكبر مركز للعمليات المالية في أوروبا عدد من واجتمع تسعة من تجار أمستردام، منذ السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، وأنشأوا شركة فان قير أى الأراضى البعيدة ثم انتشرت غيرها من الشركات التي أخذت تجمع الأرباح، ثم تقسمها بعد ذلك بين حملة الأسهم. ومع اندماج هذه الشركات في بعضها، ثم إنشاء شركة الهند الهولندية الشرقية عام ١٦٠٢، ثم نشأت بعدها شركة مماثلة في العالم الأمريكي، قبل مضى عشرين عام على ذلك .

ولقد كان من تقاليد هذا العصر ، والتي طبقت على معظم الشركات الاستعمارية ، وفي كل البلاد، أن تمنح الدولة لهذه الشركات إحتكار التجارة في معاملة خاصة في دفع الرسوم الجمركية ، وتعطيها كذلك حقوق سيادة على الأقاليم التي تحتلها . وكانت هذه الشركات تحتفظ جيوش ، وتشرف منطقة معينة مع على العدالة ، وتضرب قطع العملة، وكانت الشركات الهولندية للهند الشرقية ، بعد نجاحها تعتبر مثلاً لهذه الشركات . فقد كان رأس مالها الأصلي قد جمع من برجوازية التجار في الأقاليم المتحدة، وزاد على ستة ملايين فلوران ؛ أما ميدان

عملها فقد غطى المحيط الهندى والمحيط الهادى، من رأس الرجاء الصالح ، حتى مضيق ماجلان . وكانت الشركة تجهز السفن ، وتعين ممثليها وتستخدم الجنود المرتزقة، وتقرر حجم ونوعية مشترواتها. وكانت تحدد أسعار البيع، وأنصبة الربح وكانت هذه الشركة تبيع السكر فى أوربا بخمسة أضعاف ثمن شرائها له، والفلفل بستة أضعاف، و ووصلت أنصبة الأرباح بعد بضع سنوات إلى ما يتراوح بين ١٢٪، و ٧٥% ومتوسط ٢٠٪ فى السنة، أى أن هذه الأرباح كانت تمثل في مائة وثمانين عاماً مضاعفة رأس المال ستة وثلاثين مرة.

وكان لهذه الشركة إدارة خاصة في الهند، تحت رئاسة حاكم عام كان يغير مديراً تجارياً. وكانت تشرف على ما يتراوح بين ١٢,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ جندى، علاوة على ١٥,٠٠٠ بخار وأشرفت على كل المراكز المنتشرة من رأس الرجاء الصالح حتى مياه اليابان. ومع الطابع العسكرى لهذه الشركة، كان هناك طابعها التجاري والزراعى حينما بدأ المعمرون فى فلاحة الأرض المحيطة بهذه المراكز وبهذه الطريقة تحولت القاعدة البحرية عند رأس الرجاء الصالح إلى مستعمرة للتوطن وأقام فيها الفلاحون الهولنديون، واسمهم البوير، ثم لحق بهم بعد ذلك الهجنون الفرنسيون واستمر كل منهم يعيش معيشة خاصة به، ويزرع الحبوب ثم أدخلوا الخيول في المنطقة، وأبعدوا عنها عناصر الوطنيين والهوتنتوت، وبكل شدة وقسوة ..

وفى جاوه، فرضت الشركة سيادتها على أمراء الجزيرة، وأنشأت عاصمتها بتافيا على خرائب مدينة جاكرنا الوطنية وامتدت نفوذها على كل الجزيرة وبدأ الهولنديون هناك يعملون في الزراعة، وخاصة الفلفل وقصب السكر، ثم القهوة كما قاموا بزراعة المسك والقرنفل في ملقه، وأجبروا الأهالي على العمل في زراعة النباتات التي يحتاجونها، فتحول التاجر إلى مشرف على الإنتاج، واستخدم الجيوش المرتزقة لتنفيذ مخططاته.

وكانت الشركة تقوم بتخزين هذه المنتجات في مخازنها، ثم تنقلها السفن إلى أوربا، حتى يتم توزيعها هناك. ولقد أدت قوة هذه الشركة حتى أصبحت لها إمبراطورية ضخمة، وفكرت الأراضي المنخفضة فى إنشاء شركة مماثلة تعمل مع نصف الكرة الغربي، وشاركت بذلك مع غيرها عملية نهب أمريكا اللاتينية. أثناء ولقد سمحت أساطيل هولندا بوضع البلاد الصغيرة في اتصال مع جميع أ العالم. وكانت هذه التجربة دافعاً لكل من الإنجليز والفرنسيين لكي يقوموا بمثلها، وفي نفس الميدان. ويهمنا من هذه الحركة التجارية أنها قد شاركت برؤوس أموالها وسفنها، في تجارة الرقيق، ونقل الرقيق من القارة الأفريقية إلى العام الحديد.

الشركات الإنجليزية:

كانت أشهر هذه الشركات هى شركة الهند الشرقية الإخليزية، وسار الإنجليز فى إنشائها على نفس خط السير الذى كان الهولنديون قد ساروا عليه. وكان الهولنديون قد سبقوا الإنجليز إلى الهند ثم ضاعفرا أثمان الفلفل فنشأت شركة تجار لندن المتعاملين مع الهند » فى الأيام الأخيرة من القرن السادس عشر، وهى التي ستصبح فيما بعد شركة الهند الشرقية الشهيرة. ولقد وافقت الملكة اليزابيث على ذلك، ومنحت هذه الشركة احتكار التجارة بين إنجلترا وكل البلاد الواقعة إلى شرق رأس الرجاء الصالح، مع سلطات سيادة على المناطق التي تغزوها وإعفاءات جمركية على سلعها، والحق في تصدير ما قيمته ثلاثين ألف جنيهاً سنوياً من المعادن النفيسة. وكان رأس مالها ثمانية ألف جنيهاً، ولكنه زاد بسرعة إلى ٤١٨ ألف؛ كما زاد امتيازاتها في عام ١٦٠٣ وأصبح لها الحق في الاحتفاظ محاميات وإعلان الحرب وعقد الصلح، وتولى السلطة القضائية. وأقلع أول أساطيلها في ظل موجة من الحماس العام. وذهب جيمس لانكستر الذي قاد هذا الأسطول حتى جزر التوابل، وتفاوض من السلاطين المحليين، وأنشأ مراكز تجارية في جاوه وسومطره، ثم عاد منتصراً وأصبحت هذه الشركة منذ ذلك الوقت إحدى المنشآت الوطنية. ولقد عملت هذه الشركة فى الهند نفسها، ثم تدخلت في المنازعات بين الرؤساء الوطنيين،

وحصلت هناك على حقوق جديدة كانت هي أساس سلطة بريطانيا الإمبراطورية في الهند فيما بعد.

حقيقة أن هذه الشركة قد اصطدمت بالهولنديين من وقت لآخر، ووقعت معارك حربية بين الطرفين، ولم يتورع هؤلاء النجار على القتل والهدم وإحراق القرى لزيادة مكاسبهم. وكان هدفهم هو الربح قبل كل شيء وتحت علم الشركة والتي كانت المجليزية، ولقد وصل الحال بهذه الشركة إلى أن تصبح قوة مالية لها اعتبارها، حتى أنها أقرضت حكومة لندن نفسها في بعض الأزمات. وفي الهند اصبحت هذه الشركة مالكة وذات سيادة، وبخاصة بعد أن اشترت من بعض الأمراء إماراتهم بما عليها من أهالى ،ورعايا وفى نظير دفعها معاش سنوى للأمراء ولقد رضيت المجلترا بهذا النظام الذى كان يوحد بين جهود المواطنين وجهود الدولة، وفى إطار مشروع تجاري الحديث وكانت شركة الهند تحقق آمال الإنجليز فيها، وبشكل سمح لها بأن نعيش لمدة أطول من قرنين ونصف قرن وسمح لها بأن توصل إحدى نظم عصر الملكة اليزابيث حتى عصر الملكة فكتوريا.

ولقد عملت انجلترا على إنشاء شركة أخرى للعمل في « الهند الغربية » وكان عليها في هذا النطاق أن تتعامل مع الأسبانيين، وكان أول ميدان للعمليات البريطانية فى هذا السبيل هو إفريقية، خاصة وأن المراكز التي كانت تنشأ على سواحل هذه القارة كانت تورد العبيد، الذين يمكن بواسطتهم تحطيم عملية الحصار الأسباني على أمريكا، خاصة وأن أسبانيا لم تكن لها الأدوات والسلع التي كانت لازمة لشراء العبيد ولم تكن لها السفن اللازمة لتقلهم، فاضطرت إلى ترك عملية التجارة فى الرقيق إلى الدول الأخرى التي يمكنها أن تقوم بها. وكان من اللازم على إنجلترا أن تثبت أقدامها في أفريقية، حتى تتمكن من أن تدخل في أمريكا، فأقامت شركة غرب أفريقية » للعمل على طول الساحل الغربي لهذه القارة، وأعطتها حامبيا وسيراليون وساحل الذهب وساحل العبيد نقطاً للجمع وشحن الزنوج إلى العالم الجديد. وكثيراً ما كان الإنجليز يقومون بنقل ما يقرب من خمسة آلاف رجل فى

السنة، وتمكنوا بذلك من السيطرة على نصف هذه التجارة، وسبقوا الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فيها بكثير.

وفي نطاق التنافس مع أسبانيا، تمكنت إنجلترا من الاستيلاء على جزيرة . سانت هيلانه في وسط المحيط الأطلنطى، واستخدامها محطة خرية، وقامت عليها المستشفيات ومخازن التموين وتمكنت من الحصول على طنجه، وحين خسرتها، تمكنت من الاستيلاء على جبل طارق، ثم على جزيرة منيورقه، واستخدمتها قواعد المحاصرة إسبانيا، وحارب الإنجليز الأسبانيين في جزر الأنتيل، وثبتوا مواقع أقدامهم هناك كما أنهم عملوا في القرصنة، وشاركوا في نهب نيكاراجوا وهندوراس وبنما وفيراكروز كما قاموا بالاستيلاء على ترينيداد وبرمودا والكثير من الجزر الصغيرة في بحر الأنتيل، أو حزر البحر الكاريبي. وتوجوا هذه العملية باستيلائهم على جزيرة جامايكا في عام ١٦٥٥ ، وقضوا على الأسبانيون، بعد أن كان هؤلاء قد قضوا على الوطنيين وعمر الإنجليز جزيرة جامايكا بالاسكتلنديين والايرلنديين والزنوج، وصلوا منها مركزا لتجارة العبيد وللتهريب.

ولقد أصبحت جزر الأنتيل الإنجليزية إحدى النقط الهامة في تلك الرحلة المثلثة، والتي كانت السفن الإنجليزية تترك فيها لندن وبريستول مشحونة بالمنسوجات والأدوات الحديدية، وتصل إلى الساحل الأفريقي، حيث تبدل سلعها ويعيد شحنها بالعبيد، ثم تصل إلى إحدى نقط أمريكا وتبيع العبيد وتشترى السكر والروم والطباق، ثم القطن فيما بعد. وكانت الأراضي في هذه الجزر ملكاً المزارعين يقيم أغلبهم في إنجلترا نفسها هذا خلاف مراكز القراصنة داخل اللجان الصغيرة.

ولا شك أن عملية التوسع الاستعماري البريطاني في البحر الكاريبي وفي أمريكا الشمالية استمرت منذ ذلك الوقت، وبخطوات واسعة، ولكن ما يهمنا هو علاقة الوجود الإنجليزي في البحر الكاريبي، وعملهم في نقل الرقيق من القارة الأفريقية إلى المناطق الأمريكية. ولقد أصبح الزنوج يمثلون، وإلى حد بعيد، القرة العاملة فى الزراعة، بخاصة في المستعمرات الإنجليزية فى العالم الجديد، وحتى في

المستعمرات الإنجليزية الثلاثة عشر ، والتى سوف تصبح الولايات المتحدة الأمريكية، بعد استقلالها عن انجلترا، الوطن الأم.

الشركات الفرنسية:

نزلت فرنسا إلى ميدان إنشاء الشركات الاستعمارية مثلها في ذلك مثل هولندا وإنجلترا. وكان من سوء حظ فرنسا إنها لم تكن دولة فقيرة، فقل عدد الراغبين في الهجرة وفى المقامرة في الخارج من بين أبنائها. ورغم ذلك فقد عملت منذ عهد هنرى الرابع إلى تشجيع حركة ركة الاستعمار، وأوصت بإنشاء المناطق الزراعية والأقاليم الفرنسية فى الأراضى الجديدة فيما وراء البحار. وعملت فرنسا على إنشاء شركة مرسيليا للتجارة مع المعرض الشرقي للبحر المتوسط، ونضحت هذه الفكرة مع مرور الزمن، ونشأت شركات أخرى إلى جوار هذه الشركة، وكان لكل منها حقوق إقليمية، مثل شركة موريبهان، والمائة شريك وسان كريستوف، والجزر، ورأس الشمال والشرق. وكان هذا الطموح كبيراً، رغم أن رؤوس الأموال كانت بسيطة، والرغبة في الإقدام على هذه المشروعات كانت قليلة.

وفي عصر كولبير، ظهر أنه يمكن للشركات الخاصة وحدها أن تتاجر وتستعمر وتربح وبدرجة أكبر من الأفراد فاحتفظ لهذه المؤسسات بالمزايا والضمانات اللازمة لازدهارها. فقل عدد الشركات عما كان عليه من قبل، ولكنها أصبحت أكثر تجهيزاً، وأكثر خضوعاً للإشراف عما كانت عليه من قبل. وجاء لويس الرابع عشر بعد ذلك، وعمل على تنمية البحرية والتجارة وأفادت من ذلك كل من شركات الهند الشرقية والهند الغربية، وشركة الشمال وشركة الشرق وشركة السنغال، وهى الشركات التى كان كولبير قد أنشأها. وأفادت من المزايا القانونية والمالية. فلقد منحها هذا الملك إعفاءات من ضرائب شحن، ووضع لها نظماً بحرية مريحة وسياسة جمركية في صالحها؛ فساعدها ذلك تثيراً، وساعد كل الشركات على الازدهار والتكاثر. ووصل عدد هذه الشركات

في الفترة الواقعة بين وفاة هنرى الرابع وبين نشوب الثورة الفرنسية خمساً وسبعين شركة فرنسية. وكانت لوائحها متشابهة؛ إذ كان لها حق الملاحة والتجارة والاستيراد والتصدير في منطقة معينة محددة. وكان من الممكن تشجيع هذه الشركات بإعطائها هذه المناطق التي تعمل فيها، وإخضاعها لسيادتها وحقوقها الإدارية والقضائية؛ فأصبحت المستعمرات بهذا الشكل ممتلكات للشركات تقوم بنقل المعمرين إليها، وتحتفظ فيها ببعثات دينية، وتعمل فيها على نشر التقاليد الفرنسية.

وكانت فرنسا تعد من يساعدون برؤوس أموالهم على ازدهار المستعمرات منحهم الامتيازات وألقاب النبل، وتسمح بدخول الأجانب من بينهم في الحاشية الفرنسية. وكان الملك يأخذ أول نصيب في الشركة، وكان بهذا يجبر البلاط على التشبه به، وشراء الأنصبة في هذه الشركة. وكانت الدولة تقوم جزءاً من رأس المال بدون ربح ورغم كل ذلك فقد كان . الصعب تغيير هذه المجموعات الكبيرة من البرجوازيين والفلاحين والذين بقوا ،عازفين وإلى حد بعيد، عن المساهمة في هذه المشروعات. وإذا كان تعدد الشركات هو السبب الأساسي في حيرة الأهالي أمام الاختيار للمساهمة في شركة معينة، فإن شركة واحدة قد حظيت بانتباه أكبر، وهى شركة الهند التى كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية وفكرية تدفع الفرنسيين إلى المساهمة فيها للحصول على توابل ولآلئ الشرق، وتحدى الشركات الهولندية والإنجليزية المماثلة وللوصول إلى النجاح عن طريقها.

ولقد أنشأت فرنسا عدداً الشركات للهند الشرقية الواحدة بعد الأخرى: . أنشأت الأولى في عهد هنرى الرابع، ولم تتمكن هذه الشركة من القيام بأى شئ. وأنشأت الثانية في عام ١٦١٥ ، وأعطتها احتكار تجارة الشرق في المناطق الواقعة فيما وراء مدغشقر. وأما الشركة الثالثة للهند الشرقية فقد أنشأها كولبير عام 1664م برأس مال قدره ١٥ مليون جنيه، وأعطاها حق التجارة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق محلان لمدة خمسين سنة، علاوة على ملكية جزيرة دوقين، التي أصبحت تعرف باسم مدغشقر فيما بعد، ونسبة معينة من . حملة التجارة المستوردة والمصدرة، وإعفاء من نصف

رسوم دخول الموانى ورسوم . م الجمارك في جميع أنحاء المملكة. ولقد أنزلت هذه الشركة الجنود والمعمرين في جزيرة دوقين، وحاولت العمل في الهند، ولكن نجاحها كان نسبياً هناك. وجاءت النتائج المالية مخيبة للآمال، فاضطر الملك إلى أن يسحب من هذه الشركة حقوقها التجارية، ولم يترك لها إلا امتياز النقل، ولكن الفرنسيين حصلوا مع مرور الوقت على مواقع أقدام لهم في شبه القارة الهندية.

ولقد نجحت فرنسا كذلك في إفريقية، وفى أفريقية السوداء، وفي مدغشقر وفي المحيط الهندي، ونجحت شركة الهند مع غيرها من الشركات الأخرى المماثلة في القيام بعمليات استعمار على درجة معينة من النجاح.

أما في شمال أفريقية المواجه لفرنسا، فإن فرنسا قد نجحت في إنشاء قواعد سهلت عليها عمليات الأمن في البحر المتوسط، وسمحت لها بالمتاجرة مع أفريقية في الصوف والجلود، ونشأة شركات متعددة في هذا القطاع، وأنشأت لنفسها رؤوس حسور على القارة الأفريقية سواء بالقرب من القال، أو الرأس الأسود في تونس، أو في عناية، حيث كانت تستورد القمح والحبوب والشمع والجلود.

أما في أفريقيا السوداء، فإننا نجد شركات متعددة تعمل في هذا الميدان، ومن بين أهمها شركة سينجامبيا، وشركة السنغال، وشركة غينيا، وشركة الغرب. و قامت هذه الشركات بإنشاء مراكز لرسو السفن على طول الطريق المؤدى إلى رأس الرجاء الصالح إلى الهند وأصبحت هذه المراكز البحرية مراكز تجارية لشراء الزيت وسن الفيل والصمغ والعبيد بنوع خاص؛ فأصبحت سان لوى واليريدا في جامبيا وجزيرة جوريه قرب الرأس الأخضر، وبعض المراكز الواقعة على ساحل الذهب وغينيا محطات هامة للتجارة فى العبيد. أما جزيرة دوقين، فقد قامت محاولات متعددة لاستعمارها، خاصة وأنها كانت محطة طبيعية في طريق الهند. ولكن هذه المحاولات فشلت فلم يبقى في بوردوقين، التي أنشئت في جنوب الجزيرة، إلا ثلاثين أوربيا واستولت عليها شركة الهند لكي تجعلها مركزاً لعملياتها في المحيط الهندى فى عام ١٦٦٥ . ولقد أنزلت إليها بعض الجنود والفلاحين والنجار، ولكن الأهالى

هجموا عليها وأعملوا القتل في هؤلاء المعمرين، ورغم أن شركة الهند قد أخلت مدغشقر، إلا أن حكومة باريس قامت بضمها في عام ١٦٨٦، حتى حقوقها عليها. ولقد ظلت هذه الجزيرة خالية من الفرنسيين عاماً، حتى قام بعض القراصنة الفرنسيين بالمجيء في عام ١٧٥٠، والمخذوها ملجأ لنشاطهم في المحيط الهندى، ثم تمكن بعضهم من الزواج بأميرات من الجزيرة، وأنشوا لأنفسهم ممتلكات إقطاعية، وإن كانت إحدى الثورات الجديدة تحتفظ لمدة ستين قد قضت عليهم.

ولقد وجد الفرنسيون جزيرتين صغيرتين في مواجهة مدغشقر، حاليتين من السكان وتزدهر فيها النباتات والحيوانات وكانت الأولى هي جزيرة بوربون والثانية هي جزيرة فرنسا. أما الأولى فقد أرسلت إليها شركة الهند أربعة وعشرين من الصناع الشبان الأقوياء النبهاء مع أربعة وعشرين من الفتيات اليتيمات. ثم جاء إليها بعض اللاجئين من مدغشقر، وبعض الهولنديين والبرتغاليين، وبعض رجال بعثات التنصير، وعاش الجميع فيها على الصيد والزراعة وجمع الفواكه وصيد السلحفاة والخنازير البرية ووصل عددهم إلى خمسمائة عند نهاية القرن السابع عشر ولكن هذه الجزيرة ازدهرت بعد أن أدخلت الشركة فيها زراعة البن وأحضرت إليها العبيد من مدغشقر وموزمبيق للعمل فيها.

وأما جزيرة فرنسا فكانت لا تبعد عنها إلا بأربعين فرسخاً، وأصحت هاتين الجزيرتين مستعمرتان ناجحتان، تنتجان الأرز والذرة والقطن والقصب والنيلة. وجاء إليها المعمرون من مدغشقر وأنشوا فيها صناعات صغيرة، وبخاصة صناعة السكر والمنسوجات، وأخذت بور لوى تزداد في أهميتها الصغيرة وقد حيت آمال المساهمين ، وهكذا نرى أنه رغم أن هذه الشركات فيها، ورغم أن شركة الهند لم تتمكن من دفع أرباح حقيقية لحملة أسهمها، إلا النتائج كانت إيجابية فبدأت فرنسا في الاختيار بين مراكز متعددة في إفريقية و مدغشقر وحزر المحيط الهندى، التي حصلت فيها على مراكز وحولتها إلى مستعمرات زراعية وكما نجحت فرنسا في هذه المناطق تحت كذلك في العالم الجديد.

وفي البحر الكاريبي نزل الفرنسيون إلى هايتي التي أصبحت تسمى سال دومنكو. ولقد وصل عددهم هناك إلى أربعة أو خمسة آلاف، وعملوا في زراعة القطن وقصب السكر الأمر الذى استدعى تكليف شركة السعال بتوريد الأيدي العاملة من الزنوج اللازمين لاستغلال الجزيرة، وقامت فرنسا في عام ١٦٦٤ بإنشاء شركة الهند الغربية، والتي كان لها خمسين سفينة، مع حق احتكار لمدة أربعين عاماً. ولقد أفادت هذه الشركة من معونة حكومية بلغت ثلاثين جنيهاً عن كل طر من السلع التي تصدر من فرنسا. حقيقة أن الأهالى قد تم القضاء عليهم، ولكن تعمير الجزيرة بالبيض وبالزنوج المستوردين من أفريقية قد سار . عة، وبنفس سرعة التجارة، وأصبحت سان دومنكو لؤلؤة الأنتيل، ومستعمرة نموذجية يعلم بها ويمثلها كل الأوربيين. ولقد ظلت حزر البحر الكاريبي موطناً لاعتزاز فرنسا منذ بداية عملياتها الاستعمارية، وأصبحت تمثل ما يقرب من نصف تجارة كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار وامتلأت بعدد كبير من المزارعين، وتحار السكر، وتجار العبيد؛ وكانت شركة الهند الغربية هي التي تدير شئونها.

وهكذا نجد أن عملية استغلال العالم الجديد، واستغلال مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل وجزر البحر الكاريبي، ومزارع القطن في المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، ومزارع البن فى البرازيل وبقية أقاليم أمريكا الجنوبية كانت في حاجة إلى أيدى عاملة يمكنها أن تعمل فى المناخ الاستوائي والمدارى، وكانت هذه الأيدي العاملة تأتى من القارة الأفريقية بعد اصطيادها وترحيلها، وفي شكل عيد. ونظراً لأهمية دور الأفارقة الموجودين في المهجر، أي في العالم الجديد، في تنمية المناطق المختلفة من القارة الأمريكية، ولفداحة الثمن الذى دفعته القارة من أبنائها ودمائهم وحياتهم لتعمير العالم الجديد، تفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً.

الفصل الخامس

مؤتمر برلين 1884- 1885م

- الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر
- نشاط الدول الأوربية في أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر
- تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين
- مؤتمر برلين وما دار في جلساته
- الاتفاقات الجانبية على هامش المؤتمر
- أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا.
- التطورات التي مربها حوض الكنغو بعد مؤتمر برلين
- نظام الحكم البلجيكى في الكنغو.

مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥

الأوضاع الدولية فى الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر

تتطلب دراسة مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ – ١٨٨٥ عرضاً سريعاً للوضع الأوربى الدولى فى الفترة السابقة لإنعقاد هذا المؤتمر ويقودنا هذا إلى الرجوع قليلا إلى عام ١٨٧٠ ، ذلك العام الذى شهد دخول الألمان فرنسا وكان ذلك نذيراً بإنهاء عهد وبداية عصر جديد بعد هزيمة فرنسا وتخليها عن زعامتها لأوربا، فقام بسمارك بدور قيادى فى القارة الأوربية بعد أن جعل من ألمانيا دولة كبرى حيث اتحدت معظم الولايات الناطقة باللغة الألمانية حول (بروسيا) من أجل إنشاء اتحاد يمكن ألمانيا من الدخول فى عالم الصناعة، وأدى هذا بالفعل إلى ظهور دولة أوربية جديدة، استطاعت أن تنافس فرنسا عسكرياً، وإنجلترا صناعياً.

وبينما كانت الصناعة تتطور فى إنتاجها - وجهت الحكومة الألمانية عناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية حيث تضاعفت سفن الامبراطورية الألمانية في الفترة ١٨٧٠ – ١٨٩٠ سبعة أمثالها وارتفعت في ألمانيا الأصوات عالية مطالبة بمستعمرات شبيهه بتلك التي كونتها انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية في القارة الأفريقية .

ولم يكن أمام ألمانيا من وسيلة لدعم صناعاتها وجعلها تنافس المصنوعات الأوربية الأخرى إلا بالحصول على مستعمرات غنية تجد فيها المواد الخام اللازمة لصناعتها، ووجدت ألمانيا ضالتها المنشودة في القارة الأفريقية. وكانت ألمانيا قد تأخرت فى مجال الاستعمار وكان عليها أن تتحرك بسرعة لتأخذ نصيبها من القارة الأفريقية واندفع الرأسماليون الألمان والشركات التجارية الألمانية إلى سواحل أفريقيا يطلبون من حكوماتهم المراسيم التى تبيح لهم حق الاتجار في المناطق التي يجدونها ملائمة كمجال لنشاطهم، ولم تتردد الحكومة الألمانية في ذلك الوقت عن إجابة رغبتهم بعد أن أخذ الكتاب الألمان يشيرون إلى ضرورة إيجاد مستعمرات لألمانيا لترويج تجارتها.

وفى عام ١٨٧٨ أنشئت الجمعية الألمانية للدراسات برلين وأخذ المستكشفون الألمان يعملون في المنطقة بين زنجبار وتنجانيقا . وفي عام ١٨٨٢ أنشئت الجمعية الألمانية للاستعمار (German Colonial Society) في مدينة فرانكفورت وأدى ذلك إلى مضاعفة نشاط الألمان الإستعماري وكان هدف هذه الجمعية الدعوة إلى إقامة مستعمرات وتجميع الجهود لهذا الغرض، وتمكنت الجمعية فى عام ١٨٨٤ من إصدار صحيفة باسمها سميت الأفريقية في مدينة بالصحيفة الاستعمارية، وضمت هذه الجمعية أكثر من عشرة آلاف عضو وكان بسمارك الذي دعا إلى مؤتمر برلين حتى عام ١٨٨٤ يعارض إنشاء مستعمرات ألمانية فيما وراء البحار حتى يظل محتفظاً بمكان الصدارة داخل القارة الأوربية، وقد علل ذلك بعدة اعتبارات منها الرغبة في تحقيق الأمن للرايخ الألماني وذلك بالابتعاد عن مشكلات الاستعمار التي تؤدى إلى الإحتكاك مع بقية الدول، ومنها عدم اقتناعه بالحصول على مستعمرات لدولة ناشئة مثل ألمانيا، ومنها اعتقاده بأن الألمان ليسوا في وضع يجعلهم يدخنون مجال المنافسة مع البريطانيين. وعلى هذا ظل بسمارك ردحاً طويلاً من الزمن يعارض السياسة الاستعمارية ولكن لم يلبث أن تغير الوضع بسرعة حتى أنه في غضون عام واحد كانت ألمانيا قد كونت امبراطوريتها الأفريقية .

أما إنجلترا فقد أفاقت من سياسة الحياد الطويل والعزلة التي اتبعتها لتجد فرنسا حليفتها في حرب القرم وقد تحطمت قوتها ووجدت أمامها دولة أخرى ناشئة أكثر منها قوة، وبالطبع خشيت إنجلترا من هذه القوة الجديدة وكان بسمارك يعرف شعور إنجلترا ويعرف جلادستون وزملاءه من الأحرار، ولكن تغير الموقف حين تولى زعيم المحافظين الوزارة فلقد كان ذزرائيلى يسعى لاتباع سياسة خارجية نشطة، تخرج بريطانيا من عزلتها، وتعيد إليها مركزها في أوربا ولهذا كان بسمارك حريصاً على إرضاء المجلترا في عهدها الجديد، وكان الإقتصاد الأوربي قد مر بأزمة عنيفة فى الفترة بين عام ١٨٧٠ وعام 1880م وبالتالي فقدت إنجلترا احتكارها الصناعي العالمي، ووجدت من ينافسها من دول القارة وقد تطلب حل المشكلة البحث

عن أسواق فيما وراء البحار وأخذ أصحاب المصالح والتجار بحثاً عن المعاهدات التي تضع مناطق من تلك الجهات تحت سيطرة الدول الأوربية .

وقد تحركت إنجلترا بجنوب غرب أفريقيا تحت ضغط فرنسا وبلجيكا ودخلت في صراع مع ألمانيا في شرق أفريقيا ومن ثم بدأ التكالب على القارة بالأفريقية من أجل الحصول على المناطق الغنية بالمواد الخام.

أما بالنسبة لفرنسا فإن ثلاثة عوامل ساهمت بشكل فعال في إثارة الرأي العام الفرنسي نحو الاستعمار وأعنى هذه الإنجازات التكنولوجية المشهورة في العالم ككل ثم اكتشاف الماس في عام ١٨٦٧ في جنوب أفريقيا واخيراً تلك الروح القومية التى تولدت لدى الشعب الفرنسى بعد هزيمة فرنسا في عام ١٨٧١، وقد كان فقدان الإلزاس واللورين عاملاً في إثارة مختلف الطبقات نحو إظهار أن فرنسا لا زالت دولة قوية قادرة على التوسع وإكمال مهمتها الحضارية.

وكانت بريطانيا حريصة على مصالحها في مناطق غرب أفريقيا، وكانت قد بدأت هذا الدور كتاجر للرقيق ثم كرجل بوليس يعمل على الحد من هذه التجارة، وأخيراً كتاجر ،شرعى وقد نجت خلال القرن الثامن عشر في المحافظة على إحتكارها الكامل لتجارة الرقيق، وبعد إلغاء هذه التجارة في أوائل القرن التاسع عشر أخذت على عاتقها مهمة القضاء على الذين يمارسون التجارة بها في ذلك الجزء من العالم ، ولم يكن هناك تدخل من جانب القوى الأخرى فظلت المنطقة طيلة ثلاثة أرباع قرون تمارس فيها بريطانيا - إلى جانب القضاء على تجارة الرقيق - بعض الأعمال التجارية المشروعة، وأخذ التجار يتبادلون منتجات زيت النخيل والعاج مقابل بعض السلع الصناعية الرخيصة.

وخلال العقد السابع من القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا في تقوية نفوذها القنصلي في غرب أفريقيا ولكن ذلك لم يتم فعلاً حتى عام ١٨٨٠ عندما بدأت تتخذ خطوات إيجابية لتأكيد مكانتها بسبب ظهور الفرنسيين كقوة على الأحداث حيث كانت فرنسا تسعى لشق الطريق باستمرار منذ عام ١٨٦٠ نحو الداخل شرقاً من قاعدتها

في السنغال وكانت فرنسا قد بدأت تندفع نحو أعالى النيجر بعد سلسلة من العلمليات العسكرية في سانجامبيا بهدف الوصول إلى النيجر والاتجار فيه عن طريق ربطه بخط حديدى يصل إلى مسرح المجرى الملاحى لنهر السنغال، كان هذا الصراع بين تلك الدول الاستعمارية الأوربية من العوامل القوية التي غيرت مجرى الأمور السياسية وزادت من تفاقم الموقف الأوربي بعد عام ١٨٨٠ م.

نشاط الدول الأوربية في أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر:

إن دراسة نشاط القوى الأوربية قبل انعقاد المؤتمر تقودنا إلى أن نتساءل:

كيف تغير الرأى العام الأوربي ما بين أعوام ١٨٨٠ ، ١٨٨٥ لدرجة أنه في خلال عشرين عاماً صارت القارة الأفريقية باستثناء إثيوبيا وليبيريا خاضعة للاستعمار الأوروبي؟.

خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا في تقوية نفوذها القنصلي في غرب أفريقيا ولكن ذلك لم يتم فعلاً حتى عام ١٨٨٠ عندما بدأت تتخذ خطوات إيجابية لتأكيد مكانتها بسبب ظهور الفرنسيين كقوة على الأحداث حيث كانت فرنسا تسعى لشق الطريق باستمرار منذ عام ١٨٦٠ نحو الداخل شرقاً من قاعدتها في السنغال وكانت فرنسا قد بدأت تندفع نحو أعالى النيجر بعد سلسلة من العلمليات العسكرية في سانجامبيا بهدف الوصول إلى النيجر والاتجار فيه عن طريق ربطه بخط حديدى يصل إلى مسرح المجرى الملاحى لنهر السنغال.

كان هذا الصراع بين تلك الدول الاستعمارية الأوربية من العوامل القوية التي غيرت مجرى الأمور السياسية وزادت من تفاقم الموقف الأوربي بعد عام ١٨٨٠ م.

إن خريطة أفريقية فى عام ١٨٨٤ توضح هذه الحقيقة، فلقد كانت أهم القوى في تلك الفترة هى إنجلترا وفرنسا والبرتغال وكانت البرتغال تدعى سيطرتها على مناطق شاسعة من أفريقيا ولكن احتلالها الفعلى لهذه المناطق لم يكن جاداً، وكانت بريطانيا تحبذ فكرة استحواذ البرتغال على شريط يمتد من خط ١٢، ٠٥ إلى خط ٥٨

جنوباً بما فى ذلك مصب نهر الكونغو، حيث لم تكن الكونغو الحرة قد برزت بعد إلى حيز الوجود.

أما بالنسبة لفرنسا فكانت قد استقرت منذ بداية القرن التاسع عشر في الجزائر ثم وجدت لها موضع قدم على الساحل الغربي لأفريقيا وأخذت تتطلع نحو النيجر كما وسعت مجال نفوذها في الجابون واستولت على منطقة واسعة من الكونغو على ضفة النهر اليمنى، وكانت تسعى لوضع مدغشقر تحت نفوذها ... أما بريطانيا فكانت تسيطر عملياً على بعض المناطق في جنوب أفريقيا حتى نهر أورنج وخليج دالجوا، وكانت تستعد للسيطرة على بتسونالاند، وعلى الساحل الغربي كانت تتمسك بمستعمراتها الأربع هناك، وكانت لها بعض مناطق النفوذ في مملكة المتابيلى فى وسط القارة، بالإضافة إلى نفوذها في زنجبار وكانت مصر فى تلك الفترة قد فقدت السودان بسبب الثورة المهدية وكانت إيطاليا تتطلع إلى السيطرة على ليبيا، بينما كان تجارها يرتادون مناطق من الحبشة وأما إسبانيا فلم يكن لها موضع قدم على ساحل السودان الغربي بالرغم من إدعائها في بعض المناطق هناك.

ويعتبر عام ١٨٨٠ عاماً حاسماً في تاريخ إيطاليا الاستعماري حيث ثبت الإيطاليون أقدامهم لأول مرة فى القارة الأفريقية في منطقة خليج عصب (Assad bay التي استولت عليها فرنسا على ساحل البحر الأحمر، وكانت أنظارهم تتطلع إلى تونس لكن فرنسا أفسدت عليهم خطتهم باحتلالها فاتجهت أنظارهم بعد ذلك إلى الحبشة وشرق أفريقيا.

هناك وكان نشاط ستانلى فى حوض الكونغو، وبخاصة في تأسيس أول محطة باسم ! المنظمة الدولية التي نادى بها الملك ليوبولد ملك بلجيكا في عام ١٨٨٠ وكذلك المعاهدات التي وقعها مع الزعماء الوطنيين – دافعاً لأن يكشف الملك ليوبولد القناع عن إغراض الهيئة (هيئة الكنغو الأعلى وكانت عملية تجريده الهيئة الدولية من صفتها العالمية وجعلها مشروعاً بلجيكيا بحتا هي الشرارة الأخيرة التي ألهبت التوسع الاستعماري الأوربي في القارة الأفريقية وجعلت الدول الأوربية تتسابق فى

الحصول على أراض أفريقية حيث احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١، واحتلت إنجلترا مصر فى عام ١٨٨٢ و تتابعت عمليات التوسع والاستعمار.

كان هذا هو الوضع في القارة الأفريقية عندما فجرت ألمانيا عملية التكالب الاستعماري على أفريقيا (Scramble for Africa). ويمكن القول أن هذا الصراع بين القوى الأوربية وفي جو الشكوك التي ساورت كل منها فى نوايا الدول الأخرى - بدأت الخيوط التي تجمعت في النهاية وأدت لعقد مؤتمر دولى تناقش فيه تلك القضايا الأفريقية. ورغم أن هذا المؤتمر كان فى بدايته مهتماً أساساً بمسألة الكونغو كما ادعت الدول الداعية إليه فإنه امتد ليشمل قضايا أخرى ونبعت فكرة المؤتمر أصلاً للقضاء على معاهدة لم تعتمد بعد بين بريطانيا والبرتغال في ٢٦ فبراير ١٨٨٤ ورغم أن هذه المعاهدة تتعلق أساساً بإنجلترا والبرتغال – إلا أنها امتدت لتشمل قوى أخرى مثل فرنسا والمنظمة الدولية للكونغو وامتد نطاقها فيما بعد فشملت عدة دول أخرى.

وكانت إنجلترا قد تفاوضت مع البرتغال من أجل القيام بعمل مشترك ضد مشروع ليوبولد بتجريد الهيئة من الصبغة الدولية وتحويلها إلى مشروع بلجيكي بحت، ووصلت الدولتان (إنجلترا، والبرتغال فى ٢٦ فبراير ١٨٨٤ إلى اتفاق تعترف فيه بريطانيا بأحقية البرتغال في الإستيلاء على إقليم الكونغو بين خطى عرض ١٢ ، ٨٠٥ جنوباً على أن تكفل حرية الملاحة في كل من الكونغو والنيجر وأن تعمل الدولتان سوياً للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت بريطانيا ترى فى الاعتراف بحقوق البرتغال فى الكونغو خطوة تمهيدية لفرض السيادة البريطانية عليه فالبرتغال دولة صغيره وضعيفة وليست منافسة لانجلترا.

تطور مشكلة الكونغو قبل عقد مؤتمر برلين

المعروف أن البرتغال هي أقدم الدول الاستعمارية نشاطاً في منطقة الكونغو ولكن ادعاءاتها في هذه المناطق لم تكن واضحة ولم تؤيد ذلك باحتلال فعلى بل ارتبطت مصالحها في هذه المنطقة طوال أربعة قرون بتجارة الرقيق التي ألغيت

رسمياً في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، ورغم هذا فقد استمرت البرتغال تمارس هذه التجارة وكانت كل من بريطانيا وفرنسا تعملان على منع أية قوة تمارس العمل في تجارة الرقيق من السيطرة على مصب نهر الكونغو أو الشواطئ المجاورة.

وبذلك صارت هذه الأرض تمثل أرضاً لا صاحب لها تمارس كل القوى التجارة فيها فى ظل من الحرية الكاملة، ومع اكتشاف الأوربيين لوجود كميات ضخمة من المطاط والعاج وزيت النخيل والفول السوداني في حوض الكونغو خاصة بعد كشف ستانلى لنهر الكونغو وما كتبه عن الثروة الطبيعية في حوضه وحاجة الدول الأوربية لهذه المواد الصناعة الصابون والشمع – بدأ نشاط البيوت التجارية الضخمة في مصب النهر.وبدأت الدول الأوربية تهتم بالسيطرة على مناطق نهر الكونغو وكانت الإدعادات الاقليمية التي حصل عليها دى برازا (De Braza) لصالح فرنسا بالإضافة إلى إدعاءات الملك ليوبولد ملك بلجيكا فى هذه المناطق – مسئولة بشكل مباشر عن تلك الاتفاقية البرتغالية البريطانية التي أشرنا إليها سابقاً.

وكانت بريطانيا تهتم بحرية التجارة أكثر من غيرها في ذلك الوقت، كما كانت ترى في الاعتراف بحقوق البرتغالي في حوض الكونغو خطوة تمهيدية لفرض السيطرة البريطانية عليه . وكانت إنجلترا تسعى إلى عقد معاهدة مع البرتغال لأنها كانت في ذلك الوقت حليفة لها وكانت إنجلترا تهتم أساساً بتسوية المشكلات الدولية في غرب أفريقيا والتي كان الكونغو يشغل جزء كبيراً منها .

استمرت المفاوضات حول الكونغو، وفى أكتوبر ١٨٨٣ نوقش موضوع الكونغو مرة ثانية وكان الخوف من نشاط فرنسا هو المسيطر على الساسة البريطانيين في هذه المفاوضات، وكانت البرتغال تخشى من نفوذ الدول الأوربية الأخرى وخاصة قوات الملك ليوبولد ملك بلجيكا التي أخذت تعمل بنشاط فى حوض الكونغو، ولذا فإنها انتهزت الفرصة وفرضت نفوذها على الشاطئ الجنوبي للنهر وكانت تحبذ عقد اتفاق مع إنجلترا لأنها أقل طموحاً من فرنسا، واستمرت المفاوضات حوالي أربع وعشرين شهراً نظراً للعديد من المشاكل التي واجهت هذه

المباحثات الثنائية بين الدولتين لكن انتهى الأمر بتوقيع الإتفاق البريطاني البرتغالى الذى يقضى ببسط البرتغال نفوذها على حوض الكونغو وساعد عقد هذه المعاهدة على التقارب بين ألمانيا وفرنسا رغم عدائهما السابق فقد اتفقتا على عقد مؤتمر دولى للقضاء على ما أتفق عليه في المعاهدة الانجليزية البرتغالية ووضع الأمور في نصابها، وبالرغم من أن المعاهدة قد وقعت في ٢٦ فبراير ١٨٨٤م – إلا أن اجراءات اعتمادها نهائياً من الهيئات التشريعية في الدولتين لم تستكمل فى ذلك التاريخ ويرجع ذلك إلى معارضة الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا ثم هولندا فالولايات المتحدة وأخيراً المانيا.

مؤتمر برلين وما دار في جلساته

دعت ألمانيا مختلف القوى الدولية لحضور هذا المؤتمر الذي عقد في مدينة برلين في الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي (النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا والدانمارك وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والنرويج وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا) وقد عبر عنها بانتج بقوله إن المؤتمر قد اشتمل على الست دول الكبرى في ذلك. الوقت والسبع دول البحرية ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

عقد المؤتمر عشر جلسات كاملة بدأت الجلسة الأولى في ٢٥ نوفمبر ١٨٨٤ وعقدت الجلسة الأخيرة في ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وصدرت قرارات المؤتمر في شكل ميثاق عام General Act تضمن ٣٨ مادة نصت المادة ٣٨ من نصوص المؤتمر على أن المواد التي تعتمدها الدول المشتركة سوف تصبح سارية المفعول بعد كافة الدول عتمادها.

وبالفعل اعتمدت كل الدول المشتركة في هذا المؤتمر هذه القرارات عدا الولايات المتحدة، وقد ذكر بسمارك في اجتماع ١٩ أبريل عام ١٨٨٦ بأن الولايات المتحدة سوف تدخل فى قائمة القوى التي ربما تنضم بعد ذلك إلى نصوص المؤتمر حسب المادة ٣٧ التي نصت على أن القوى التي لم توقع على المرسوم العام للمؤتمر

سوف تنضم إليه فيما بعد ، ويمكن أن نميز بين ما دار في جلسات المؤتمر الرسمية الشاملة وبين الإتفاقيات الجانبية بين دولتين أو أكثر من دول المؤتمر.

ما تم في جلسات المؤتمر الرسمية

إن أهم المسائل التي عالجها المؤتمر في جلساته الرسمية هي:

-الحرية التجارة في حوض نهر الكونغو

- كشفت المناقشات حول هذا الموضوع عن تقارب بين ألمانيا وإنجلترا والهيئة الدولية، وكانت هذه المجموعة تهدف إلى التوسع في عملية حرية التجارة ككل في أواسط أفريقيا، ولكن فرنسا والبرتغال عارضتا هذا المبدأ حيث سعت كل منهما إلى تضييق حدود التوسع بقدر الإمكان وظهرت القطيعة الواضحة بين أعضاء وفود فرنسا وألمانيا، وقد تعاطف بمسارك مع المجلترا والهيئة الدولية وحلق بذلك انتصاراً ملموساً لمبادئ حرية التجارة.

وقد نجح المؤتمر بعد الجلسة الأولى في تحديد الحدود الجغرافية لحوض الكونغو وشكلت لجنة لهذا الغرض وأمكن رسم هذه الحدود التي تمتد من مناطق سقوط الأمطار على الحوافى الجبلية للأحواض المجاورة لأنهار نيارى (Niari) وأجووى (Ogowe) وشاناى (Schani) ونهر النيل في الشمال وسقوط الأمطار الشرقية على بحيرة تنجانيقا في الشرق، وكذلك مناطق سقوط الأمطار على أحواض الزمبيزى ولوجى (Loge) في الجنوب، وقد أثارت البرتغال بعض المشكلات بسبب رغبتها في ضم بحيرة تنجانيقا لأملاكها لكنها لم تنجح في ذلك، وأمكن الانتهاء من بحث هذه المسألة مع أوائل ديسمبر ليتفرغ المؤتمر لبحث المسألة الثانية الخاصة بحرية الملاحة في حوض النيجر.

- حرية الملاحة في حوض النيجر

نصت المادة (٣٠) من نصوص المؤتمر على أن تتعهد بريطانيا بتطبيق مبادئ حرية التجارة والملاحة في مياه النيجر وفروعه ومنافذه الواقعة تحت سيادتها، كما تعهدت

بريطانيا بالعمل على حماية التجار الأجانب المنشآت وجميع التجارية فى أحواض النيجر الواقعة تحت السيادة البريطانية وذلك بشرط التزام التجار بشروط وقواعد التجارة هناك.

كما نصت المادة (٣٣) على حرية الملاحة فى النيجر والمياه الأقليمية خلال الحرب حيث تظل نصوص المؤتمر سارية المفعول في زمن الحرب، وعلى هذا تظل الملاحة حرة لكل الدول سواء المحايدة منها أو التي في حالة حرب.

نصت المادة (٣٤) من نصوص المؤتمر وهى من أهم المواد التي اتفق عليها في المؤتمر عي أن أي قوة تستولى على أى جزء من الأرض على سواحل القارة خارج ممتلكاتها الحالية أو التي تنوى إعلان حماية عليها – أن تخطر هذه الدولة كل القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر حتى تتمكن من الدفاع عن ادعاءاتها الخاصة .

كذلك تقرر حق الدولة الأوربية التى تستولى على منطقة ساحلية في المنطقة الواقعة في ظهر هذه المنطقة - وهى أطلق عليها بنظرية الظهير.

واحتوى قرار المؤتمر فى المادة ٣٤ على بندين .

يقضى **البند الأول** بأن أية قوة تحصل على منطقة ما في المستقبل على سواحل أفريقيا وتقع خارج ممتلكاتها الحالية عليها أن تصحب ذلك بإعلان كل القوى الأخرى في المؤتمر.

أما **البند الثاني** : فيقضى بعدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلى للمنطقة على أن تقوم هذه الدول بالعمل على تقدم سكان المنطقة وتقيم بها حكومة عادلة قضائى عادل واحترام حقوق المواطنين واحترام حقوق التجارة والنقل والمواصلات.

وتكتسب المادة ٣٤ أهمية خاصة لأنها دفعت الدول الأوربية التكالب على الاستعمار في أفريقيا بإعلان ذلك للدول الأخرى.

- أما المسائل الإنسانية مثل مقاومة تجارة الرقيق:

فقد ناقشها المؤتمر في عبارات موجزة وغامضة وبالتالي فإنها لم تشكل إلا جزء بسيطاً . أعمال المؤتمر، ولقد جاء في المادة التاسعة من نصوص المؤتمر ما يقيد حيث أن تجارة الرقيق محرمة طبقاً لمبادئ القانون الدولي، ولذا فإنه لابد من العمل على منع الاتجار فى الرقيق سواء براً أو بحراً وعلى القوى التي تمارس سيادتها أو نفوذها على بعض المناطق في حوض الكونغو أن تعلن تحريم تجارة الرقيق هناك، وعلى كل القوى أن تجند كل الإمكانيات المتاحة لوضع حد لتجارة الرقيق ومعاقبة كل من يمارس العمل بها.

الاتفاقات الجانبية على هامش المؤتمر

إذا كان المؤتمر قد عالج مثل هذه الموضوعات بشكل موسع وكرس أعضاء لمناقشة هذه القضايا - فإن مباحثات جانبية كانت تسير جنباً إلى اجتماعات المؤتمر ونجحت هذه الاجتماعات الجانبية في أن تحل بعض جنب مع المشاكل التي واجهت المؤتمر منذ انعقاده.

فيما يتعلق بالكونغو تقرر قيام دولة حرة بها تحت إدارة جمعية الكنغو التي يرأسها الملك ليوبولد – منذ كان موقف إنجلترا والبرتغال ضعيفا لدرجة أن إعضاء من البرلمان البريطاني ذاته تهكموا على تأييد إنجلترا لوضع منطقة هامة مثل الكونغو في يد دولة ضعيفة كالبرتغال.

تقييم مؤتمر برلين

تضاربت الأقوال حول هذا المؤتمر ومدى ما حققه من نجاح بل ومدى قانونية القرارات التي اتخذها، ويقول إميل بانينج Emile Banning) سكرتير الملك ليوبولد ورئيس وفده فى المؤتمر في تقييمه للمؤتمر.

1. أقر المؤتمر قيام دولة حرة فى قلب أفريقيا الإستوائية تكون من الناحية التجارية مفتوحة لكل الشعوب، بينما من الناحية السياسية بعيدة عن المنازعات الدولية .

2. ثبت المؤتمر مبادئ الحرية والمنافسة الشريفة بعكس التقاليد الإستعمارية البالية

3. أتاح المؤتمر الفرصة لتقسيم القارة شمالي وجنوبي خط الإستواء بطريقة سليمة دون سفك للدماء ولا خلافات طاحنة كتلك التي صاحبت استعمار الأمريكتين.

أعظم ما حققه المؤتمر – الدور الذى عهد به لبلجيكا في حمايتها للسلام بهذه المنطقة فدولة الكونغو التى أقر المؤتمر خلقها تعتبر من وجوه كثيرة حلقة الاتصال والجسر الذى تنتقل عليه أوجه النشاط المختلفة إلى كل المستعمرات المحيطة بها.

ولعل تحليل سابيل كرو (Crowe Sabyle) استاذة القانون الدولي بجامعة اكسفورد فيما بعد للنتائج التي أسفر عنها المؤتمر أقرب للدقة والحقيقة.

فلقد جاء في تحليلها لنتائج المؤتمر ما يلى:

1 ذكر الذين دعوا لعقد المؤتمر أن من أهدافه تحقيق حرية الملاحة والتجارة في أحواض النيجر والكنغو – لكن في حقيقة الأمر قد أسفر في النهاية عن إحتكار الدول الكبرى للتجارة في المناطق التي خضعت لنفوذها في هذه الجهات .

٢- وكان القرار الإنساني الوحيد الذي اتخذ هو المتعلق بمحاربة تجارة الرقيق، ذلك فإن حوض الكونغو كما ظهر فيما بعد أصبحت تمارس فيه أبشع أعمال الوحشية التي شهدها تاريخ الإستعمار.

وقد حاول المؤتمر أن ينظم العلاقات بين الدول الإستعمارية على أسس قانونية محددة – لكن كما سنرى أن كل ما نجح فيه المؤتمر هو أن يدفع عجل التكالب

الإستعماري على القارة الأفريقية scramble for Africa) لتسرع الخطى – فقد أسرعت كل دولة - بعد المؤتمر – لتحقق أطماعها في القارة ولذلك فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى كانت معظم القارة قد وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبي.

نقطة هامة أخرى أثارتها قرارات مؤتمر برلين هي مدى قانونية القرار الذي اتخذه المؤتمر فيما يتعلق بالكنغو أى مدى اتفاق هذا القرار مع الأسس العامة للقانون الدولي.

أثر مؤتمر برلين على الخريطة السياسية لأفريقيا

جاء مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ تتويجاً لجهود ومحاولات القوى الأوربية لتنظيم عملية التكالب والسيطرة على القارة الأفريقية، ويعتبر هذا المؤتمر خاتمة المطاف لذلك الصراع الدولى الأوربي على تلك القارة وثمرة من ثمار الدبلوماسية الأوروبية في تكالبها على السيطرة على قارة برمتها مثل قارة أفريقيا.

وتكشف لنا النظرة الشمولية الخريطة أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر أن حوالي ١٠ من مساحة أفريقيا كان في ذلك الوقت واقعاً تحت السيطرة الأوربية، ويتمثل هذا الجزء الضئيل في استحواذ فرنسا على الجزائر، وبريطانيا على حوالي مائة وثلاثين ألف ميل مربع فى جنوب أفريقيا، ولكن بعد المؤتمر وفى أقل من عشرين عاماً تلت هذا المؤتمر استولى الأوروبيون على الجزء الباقي من القارة وقد تمت معظم هذه الأعمال من التقسم بعد مؤتمر برلين الذي أسفر في النهاية على تغيير ملامح الخريطة السياسية لقارة أفريقيا بعد أن نظم عمليات السيطرة والإحتلال، فاحتلت بلجيكا الكونغو وكانت بريطانيا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ وأعلنت حمايتها على الصومال في عام ١٨٨٤، وهي مناطق كانت تابعة لمصر وضمت بتسوانا لاند، وجنوب أفريقيا ونيجيريا، وأفريقيا الشرقية البريطانية، وتوسعت في غينيا

وسيراليون وساحل الذهب وأعلنت حمايتها على أوغندا في عام ١٨٩٤ وبسطت نفوذها على السودان باسم مصر بعد ذلك بفترة قليلة .

أما فرنسا فكانت تحتل تونس عام ١٨٨١ ثم توسعت في السنغال واحتلت منطقة الكونغو الفرنسية والصومال الفرنسي وساحل العاج ومدغشقر في تلك الفترة أيضاً.

أما ألمانيا فإنها كونت مستعمراتها كلها في جنوب غرب أفريقيا والكاميرون وتوجولاند وأفريقيا الشرقية الألمانية.

وتوسعت البرتغال في غينيا البرتغالية بعد هذا المؤتمر مباشرة (غينيا بيساو) وفى أنجولا وأفريقيا الشرقية البرتغالية واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١٢، وسقطت مراكش (المغرب) تحت السيطرة الأجنبية حيث احتل الأسبان جزء من شمالها واستولى الفرنسيون على المنطقة الجنوبية، وخضعت (طنجة) لنظام دولي واستمر الوضع كذلك حتى قامت الحرب العالمية الأولى وانهزمت ألمانيا واقتسمت الدول الأوروبية مستعمراتها في أفريقيا حيث حصلت بريطانيا على مستعمرة أفريقيا الشرقية (تنجانيقا) وعلى جنوب غرب أفريقيا الإلمانية وجزء من الكاميرون أضيف إلى نيجيريا، وعلى جزء من توجولاند أضيف إلى ساحل الذهب بينما حصلت فرنسا على الجزء الباقي وتنتهى بذلك قصة الصراع الأوروبى على أفريقيا وتخرج ألمانيا زعيمة عملية التقسيم والتكالب من كل هذه الغنيمة صفر اليدين وتظل بصمات مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ / ١٨٨٥ وآثاره السياسية تنعكس على القارة الأفريقية حتى بعد استقلالها .

ويعتبر مؤتمر برلين ١٨٨٨٤ / ١٨٨٥ من أهم المؤتمرات في تاريخ أفريقيا ويعد نقطة بارزة فى الصراع الاستعماري على القارة، ففى هذا المؤتمر تم وضع أسس تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية دون مراعاة لأى تكافؤ اقتصادي أو لغوي وحضاري، فقد قسم المؤتمرون القارة إلى أشلاء لا تتكافل مع لكنها تشبع أطماع الدول الأوروبية المستعمرة، ولم تنته آثار مؤتمر برلين السيئة باستقلال

المستعمرات، فلعنة هذا التقسيم العشوائي تلاحق الدول الأفريقية الجديدة في صورة النزاع على الحدود أو ادعاء سيادة أو رغبة في تكامل إقتصادى بالإضافة إلى المشكلات الاقتصادية. إن كثيراً من الوحدات السياسية المكونة اليوم بحدودها الحالية ليس لها من المقومات الجغرافية أو البشرية ما يمكن أن يساعدها على البقاء أو الاستمرار كوحدة سياسية، فعندما انعقد المؤتمر استباح الإستعمار كل وسيلة فأصبح ظهر القارة يئن من التمزق الذى لا ضابط له وجسمها يئن من كثرة ما استنزف من خيراته والأقسام الحالية في القارة إنما تمثل التوسع السياسي لكل قوة استعمارية في حدود التوازن بين مجموع القوى.

التطورات التي مربها حوض الكنغو بعد مؤتمر برلين

1. كان مؤتمر برلين بمثابة إعلان لقيام دولة الكنغو الحرة Free State Congo تحت إدارة جمعية الكنغو التي يرأسها الملك ليوبولد دون تحديد واضح لحدودها.

2. وفي الإقليم الشرقي : في المنطقة بين بحيرة تنجانيقا وشلالات ستانلى كان العرب الذين قدموا من الشرق ووصلوا إلى أعلى الكنغو يسيطرون على المنطقة، وكان على رأسهم حميد بن محمد المرجبي الذي اشتهر باسم (تبوتيب) والذي سبق أن استعان به ستانلى فى الكشف عن مجرى نهر الكنغو.

واستطاع المرجبي أن يكون دولة عربية في هذه المناطق، كانت عاصمتها (كاسونجو) وظل يحكمها حتى سنة ١٨٩٠ ، وخلفه ابنه المدعو (سيفو) وقد ذكر بعض الكتاب البلجيك وغيرهم أن هذه الدولة العربية كانت قد بلغت درجة كبيرة من التقدم وكانت بها قصور مؤثثة بأفخر الأثاث، كما كانت بها مساجد ومدارس عربية يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم وبعض علوم الدين والحساب وقد أضطرت دولة الكنغو الحرة سنة ١٨٨٧ إلى الاعتراف بسلطة الزعيم العربي حميد بن محمد المرجبى فى هذه المنطقة على أن يعمل لاستتباب الأمن في هذه الجهات وأن يسمح بإقامة ممثل للسلطات البلجيكية في بلاطه.

وانتهز العرب هذه الفرصة فاستطاعوا الحصول على ما يحتاجون إليه من الأسلحة دون اعتراض من ممثلى دولة الكنغو الحرة، كما أن النجاح الذي حققه الزعيم العربي كان حافزاً لقبائل عدة لإعلان انضمامها تحت زعامته. ولكن العرب كانوا يدركون أنه حالما تشعر السلطات الحاكمة في دولة الكنغو الحرة بقوتها – فإنها لا تلبث أن تحاول القضاء على نفوذهم، وقد زادت مخاوفهم حين عمدت حكومة الكنغو إلى تحويل التجارة الأفريقية إلى غرب القارة مما ترتب عليه إضعاف مركز العرب الذين كانوا يعتمدون على صلتهم بإخوانهم في شرق القارة وفى الجزيرة العربية لترويج البضائع الأفريقية التي هي مصدر ثروتهم والتي ترتكز عليها قوتهم.

وقد شجع نجاح حركة المهدى فى السودان العرب في هذه المناطق على الوقوف في وجه السلطة التي مدت نفوذها إلى الكنغو والتي كانوا ينظرون إليها على أنها سلطة أجنبية دخيلة على هذه البلاد. وهكذا كان كل طرف في الحقيقة يعد نفسه للمعركة القادمة التي لابد منها وبدأ الإصطدام بين القوتين في عام ١٨٩٢ ، واستطاعت قوات العرب بعد ذلك أن تحرز عدة انتصارات على قوات دولة الكنغو – لكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام القوات البلجيكية المسلحة بأسلحة حديثة، وفى ١٧ أبريل ١٨٩٢ تقدمت القوات البلجيكية صوب كاسونجو، وسقطت المدينة العظيمة عاصمة الدولة العربية هناك في أيديهم وقد ذهل البلجيكيون لما وجدوه من مظاهر الحضارة والتقدم بها . واستغل البلجيكيون العمال المهرة من سكان المدينة من نجارين وحدادين وزراع وغيرهم لتعليم فئات أخرى هذه الصناعات والمساهمة في إقامة الحصون والقلاع والقرى الجديدة في الأماكن المحيطة بالعاصمة كاسونجو.

– ولم تقف أطماع ليوبولد عند هذا الحد فحين ظهر أن إقليم (كاتنجا) غنى بالنحاس أسرع (ليوبولد) لعقد اتفاقيات مع زعماء القبائل في هذه الجهات للحصول على امتيازات في هذا الاقليم.

- واتجهت أطماع الملك ليوبولد أيضاً إلى مد نفوذه من الكنغو شرقاً إلى النيل وأتاحت الظروف المحيطة بمصر والسودان – فرصة ذهبية لتحقيق هذه الأطماع فإضطراب الأحوال في مصر خاصة بعد خلع الخديوى إسماعيل وظهور الحركات الوطنية التى كان على رأسها أحمد عرابي، بالإضافة إلى قيام الثورة المهدية في السودان - أفسح المجال للأطماع البلجيكية في حوض النيل.

وحين وصلت أوروبا في سنة ١٨٨٦ أخبار تفيد بأن (أمين باشا) حاكم المديرية الإستوائية في مركز حرج بسبب الثورة المهدية التي قطعت صلته بالشمال – وجدت الدوائر الاستعمارية في أوروبا خاصة في بريطانيا - في ذلك فرصة مناسبة للتدخل وألف رئيس الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا لجنة لجمع الأموال للشروع في تكوين حملة النجدة التي سيرأسها ستانلي، وللصلة التى كانت بين ليوبولد ملك بلجيكا وستانلى الذى عمل معه مدة طويلة، حيث وجد ليوبولد باب أمل جديد لتحقيق أطماعه في الإستيلاء على أعالى النيل واجتمع ليوبولد مع ستانلى قبل سفره في حملة الإنقاذ، ووصل ستانلي إلى القاهرة في يناير ١٨٨٧ ثم استأنف مهمته باعتباره رئيساً لحملة الانقاذ، وعندما قابل ستانلي أمين باشا على شاطئ بحيرة البرت في مايو ١٨٨٨ إقترح

عليه :

أ – إما الإنسحاب هو ومن معه من الضباط والجنود إلى مصر.

ب – أو يبقى في المنطقة كمدير في خدمة دولة الكنغو.

ج- أو يعمل في خدمة الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا.

على أن أطماع الملك البلجيكي إصطدمت بأطماع الدول الأجنبية الأخرى، فبالإضافة إلى إنجلترا كانت لفرنسا أطماع في وادى النيل.

على أن إنجلترا رأت مصلحتها في أن تتفق مع بلجيكا، وفعلاً تم توقيع معاهدة بين الطرفين في ٢ مايو ١٨٩٤ في بروكسل أتفق فيها على أن تؤجر بريطانيا إلى

الملك ليوبولد ملك بلجيكا ودولة الكنغو الحرة المناطق الواقعة قرب بحيرة البرت وتتبع تقسيم المياه بين النيل والكنغو.

على أن هذه المادة أثارت أزمة بين إنجلترا وكل من ألمانيا وفرنسا انتهت بإتفاق حكومة جلالة ملك بريطانيا مع الملك ليوبولد على إلغاء هذه المادة من الإتفاقية وصدر تصريح بذلك في يونية سنة ١٨٩٤ وأعطى الملك ليوبولد لمدة حياته فقط المنطقة التي أطلق عليها إسم (حاجز لادو) على أن تعود هذه المنطقة إلى حكومة السودان في ظرف سنة أشهر من إنقضاء مدة تملك ليوبولد لها.

وطبقاً لهذه الإتفاقية التي عقدت بين المجلترا وبلجيكا أعيدت هذه المنطقة إلى حكومة السودان فى ١٦ يونية سنة ١٩١٠ عقب وفاة الملك ليوبولد الثاني.

الكنغو مستعمرة بلجيكية حكومية

ظل الوضع في دولة الكنغو الحرة كما هو حتى عام ١٩٠٨. وفى هذا العام وافق البرلمان البلجيكي على إنهاء دولة الكنغو الحرة وإعتبار الكنغو مستعمرة بلجيكية حكومية تتبع فى إدارتها وزارة المستعمرات البلجيكية.

والذي دعا إلى هذا الإجراء أن الأصوات قد أخذت ترتفع في كل أنحاء العالم ضد أعمال القسوة والسخرة التى يُعامل بها الوطنيون في دولة الكنغو الحرة ، فقد ظهر للرأى العام العالمى أن أبشع أنواع الجرائم والمخالفات للقانون الدولى ترتكب في الكنغو بواسطة ممثلى الملك – فإن الملك ليوبولد الثاني لم يكد يحصل على إعتراف العالم به حاكماً على دولة الكنغو الحرة طبقا لقرارات مؤتمر برلين حتى القى جانباً المبادئ السامية التي كانت المبرر الذي إستند عليه ليكسب موافقة الدول إلى جانبه، ووضع بدلاً . ذلك سياسة قائمة على إحتكار تجارة المطاط والعاج، هذا بالإضافة إلى تسخير الأهالي بطريقة بشعة لتحقيق سياسة الإستغلال التي رسمها فأصدر عدة قوانين أصبحت الكنغو بموجبها ضيعة تستغل وتستثمر لحساب التاج.

وعلى أساس القوانين السالفة الذكر أصبح كل من يوجد عنده أية كمية من المطاط أو العاج سارقاً وتوقع عليه أقصى العقوبات، وكان على ضباط البوليس يراقبوا العمال الذين يجبرون على العمل في المطاط والعاج، وحدد لكل قدر معين يقدمه يومياً، ومن يعجز عن ذلك لأى سبب تعرض لأشد أنواع العقاب وكان القتل بالرصاص وقطع الأيدى من العقوبات التي تمارس بكل بساطة والتي يقدمها المشرفون على العمال كدليل على إخلاصهم وتفانيهم أن جمع في العمل.

وساعدت السياسة التي اتبعتها سلطات (دولة الكنغو) في إخفاء الحقيقة عن كثير من الشخصيات والبعثات الأجنبية التى لم يكن يُسمح لها إلا بزيارة أماكن معينة في الكنغو حيث كانت تتركز الغالبية الأوروبية من المستوطنين، هؤلاء الزوار يشاهدون مظاهر المدنية الأوربية متمثلة فى المبانى والمدارس والمستشفيات وغيرها فكانوا يكونون فكرة غير صحيحة عن الأوضاع في الكنغو .

واستمرت وسائل الإرهاب لإجبار رؤساء القبائل في الكنغو على تقديم العمال اللازمين للعمل ولتنفيذ ما يؤتمرون به وكان عدم تحقيق أرباح مقبولة لرأس المال الذي يستغله البلاط الملكي البلجيكي في الإستثمار في الكنغو معناه أعمال القسوة والوحشية والسخرة. المزيد من وظل الوضع كذلك كشف حتى القناع عن حقيقة ما كان يجرى بالكنغو فأجبر الملك ليوبولد على التنازل لحكومته عن إدارة الكنغو.

الأوضاع في الكنغو

وقد ناقش المجلس هذه التقارير في عام ١٩٠٣ ونشريت بعض الصحف البريطانية صوراً كاريكاتورية للملك ليوبولد جالساً على عرش من جماجم الكنغوليين ومحاطاً بحقائب الذهب وتألفت لجنة تحقيق بلجيكية بناءً على توجيه من البرلمان البلجيكي لتقصى الأخبار وتقديم تقرير عن الوضع فى الكنغو، وقدمت اللجنة تقريرها وأعترفت فيه بكل هذه المساوئ، وترتب على ذلك أن تألفت لجنة أخرى لإقتراح وسائل الإصلاح وقد أعلنت هذه اللجنة مقترحاتها في عام ١٩٠٨ وترتب على هذا

أن صدر المرسوم بإنهاء دولة الكنغو الحرة التي وجدت بناءً على قرارات مؤتمر برلين.

وتحول الكنغو إلى مستعمرة بلجيكية في ١٧ أغسطس ١٩٠٨ وأستمر كذلك حتى أعلن قيام جمهورية الكنغو المستقلة في يونية سنة ١٩٦٠ .

نظام الحكم البلجيكي في الكنغو

كان إهتمام سلطات (دولة الكنغو الحرة) موجهاً إلى ضمان خضوع البلاد للحكم الجديد والولاء له. ولذا وضع نظام إدارى يحقق هذا الهدف، فوضعت السلطة التنفيذية في يد (حاكم عام) يساعده عدد من الموظفين وتوالى على دولة الكنغو الحرة عدد من الحكام أشهرهم ستانلى وكان أول حاكم لها من قبل الملك، وكان يساعد الحاكم (نائب الحاكم العام بالإضافة إلى السكرتير العام للدولة وعدد آخر من الموظفين .

وقسمت البلاد إلى ١٤ إقليماً يدير كل منها مندوب أو مدير يمثل سلطة الدولة في إقليمه وينفذ تعلماتها وهو مسئول أمام الحاكم العام. وعهد الملك ليوبولد إلى مجلس فى بروكسل يتكون من رئيس ومستشارين بمهمة السلطة التشريعية، وإن كان قد منح الحاكم العام سلطة إصدار القوانين للظروف العامة، ويعين الملك كبار موظفى الدولة وأعطى الحاكم العام سلطة تعيين باقي الموظفين .

ومن جهة الأجور كان أجر العامل الأفريقى لا يزيد عن سبع أجر العامل الأوربي الذي يقوم بنفس العمل . عن الرعاية والتوجية دون أن يكون لهم حقق مناقشة المسائل التي تخصهم أو التساؤل أسباب ما يحدث وهو ما عبر عنه نظام الوصاية الأبوية. وكانت نظرة البلجيكيين للكنغوليين على أنهم أطفال قصر يحتاجون دائماً وقد تعرض كثيرون من الأفارقة لأعمال القسوة والتعذيب والإلقاء في السجون بغير ذنب واضح.

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ البلاد الإقتصادي إلى ثلاث فترات متميزة هي:

الفترة الأولى (١٨٨٥ – ١٩٠٨) وهى فترة الإستغلال غير المنظم وهى الفترة التي قامت فيها ما سميت بدولة الكنغو الحرة، وفى هذه الفترة استغل الأهالى واستغلت أراضيهم إلى أبعد حد، فقد أعتبرت أرض الكنغو ومن عليها ملكاً للملك ليوبولد الثاني.

الفترة الثانية (١٩٠٨ – ١٩٢٠) : فترة إستثمار المواد الخام والمعادن من أجل الإتجار بها كما هي دون بذل أي جهد لتقدم الأهالى أو تحسين أحوالهم أو تدريبهم على استغلال موارد بلادهم.

الفترة الثالثة (١٩٢٠ – ٣٠ يونية (١٩٦٠) : فترة التصنيع والتقدم الزراعي، مع عدم إتاحة الفرصة للكنغوليين لمباشرة الحقوق السياسية وذلك عملاً بسياسة الوصاية الأبوية التى أشرنا إليها سابقاً والتي تنظر للشعب على إنه غير كفء للإضطلاع بمهام الحكام والإدارة .

وحين تسلمت الحكومة البلجيكية إدارة الكنغو سنة ١٩٠٨ بدأت تبذل بعض الجهد فأنشأت إدارة للصحة في ليوبولد، وفي سنة ١٩٢٢ أنشأت معهداً لطب المناطق الحارة في انتورب.

وكان نشاط الشركات والهيئات الأهلية والتبشيرية فى هذا المجال أكثر من نشاط الحكومة البلجيكية – لكن تركز إهتمام هذه الشركات أولاً على خدمات موظفيها خاصة الأوربيين منهم ثم أخذ هذا النشاط يتجه أيضاً للوطنيين في الثلاثينات من هذا القرن.

ذلك فإن الاحصائيات الرسمية التي نُشرت لعدد المستشفيات والأطباء ومساعديهم من القائمين على علاج الأفريقيين - تدل دلالة واضحة على أنه حتى هذه الناحية الانسانية لم تكن تلقى من اهتمام الأوربيين حتى ما تحتمه ومع مبادئ الاستغلال السليم.

الحركة الوطنية واستقلال الكنغو

حرصت بلجيكا على فرض ستار حديدى يحول دون إتصال الكنغو بالتيارات التي تجرى فى القارة، كما منعت قيام الأحزاب السياسية – لكن لم تستطيع أن تحافظ على هذه العزلة العجيبة إلى الأبد فكان لابد أن تهز الكنغو أحداث الحرب العالمية الثانية وما تموج به القارتان الأفريقية والأسيوية من حركات تحررية .

وحاولت بلجيكا أن تواجه المشكلة بحل آخر فأصدرت بعض التشريعات عام ١٩٥٧ بإنشاء مجالس المديريات والمجلس الإستشارى العام للكنغو ولكن عدد الأفريقيين فى هذه المجالس بوضعها السابق شرحه لم تكن البديل السليم للنظام التشريعي الذي يطالب به الكنغوليين، بالإضافة إلى المشكلات الأخرى الخاصة بالأجور والمساواة فى الحقوق لكافة المواطنيين دون مراعاة اللون، وكذلك الإصلاحات الإجتماعية التي أخذ بعض الكنغوليين يشعرون أن مجتمعهم في مسيس الحاجة إليها ولم يلبث أن ظهرت عدة أحزاب وطنية مثل حزب أباكو الذى رأسه كازافوبو وحزب الحركة الوطنية الكنغولية وكان على رأسه (باتريس لومومبا) وحزب التضامن الأفريقي الذي رأسه انطون ، وكانت المظاهرات العنيفة التي اجتاحت ليوبولد فيل في يناير ١٩٥٩ نذيراً بتطور الحوادث فى الكنغو مما دعا ملك بلجيكا الملك بودوان (Baudouin) لأن يصدر بياناً يعد فيه بمنح الكنغو الإستقلال، كما تشكلت بعثة برلمانية للتحقيق في أسباب الإضطرابات وما تراه من وجوه الإصلاح.

وتجددت الإضطرابات في أواخر عام ١٩٥٩ خاصة في (ستانلي فيل) عاصمة الإقليم الشرقى وموطن (باتريس (لومومبا) الذى أعتقل بتهمة تدبير الإضطرابات .

واضطرت السلطات البلجيكية للإفراج عن باتريس لومومبا ليشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في بروكسل الذي عُقد في مستهل عام ١٩٦٠ وحضره ممثلون للأحزاب الكنغولية المختلفة وأنهى المؤتمر جلساته في ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٠، وتقرر إعلان استقلال الكنغو يوم ٣٠ يونية ١٩٦٠.

واجريت الانتخابات وتولى على أثرها لومومبا رئاسة الحكومة – ولكن حاولت بلجيكا أن تحقق بالخيانة والدسيسة ما لم تستطع تحقيقة بالوسائل العادية فعزل لومومبا في ستمبر عام ١٩٦٠ واعتقل ثم نقل إلى كاتنجا وحل محله عميل بلجيكا (تشومبي) وأغتيل لومومبا في ١٧ يناير ١٩٦١.

لكن رغم ذلك استطاعت الكنغو أن تحافظ على استقلالها وأن تدخل بعد ذلك عضواً في منظمة الوحدة الأفريقية منذ قيامها في عام ١٩٦٣، وفي ٢٤/١١/٦٥ تولى السلطة في البلاد الرئيس موبوتو سيسيكو، وفي ٢٧/١٠/٧١ تغير إسم البلاد إلى جمهورية زائير وهو الإسم الذي كان يعرف به حوض الكنغو قبل الإستعمار.

إنهاء حكم موبوتو

حكم موبوتو البلاد حكما دكتاتوريا - وانفرد بالسلطة واستغل ثروة البلاد الطائلة للاثراء وقد قامت في الأقليم الشرقى (شابا) حركة انفصالية لكن نجح موبوتو - بمساعدة قوات من المغرب ومن فرنسا - فى قمع هذه الحركة - وقد حثته الدول التي أيدته في حربه ضد الخارجين على حكومته على إدخال النظم الديمقراطية في نظام حكمة . وقد شهدت الكونغو فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين اضطرابات عدة وكان موبوتو فى الفترة الأخيرة من حكمه مريضا بسرطان المثانة ويعالج في هولندا. وقد نجح (رولان كابيلا) في ١٧ مايو عام ١٩٩٧ في أن يدخل العاصمة كنشاسا على رأس عدد من المسلحين من قبائل التوتسى سرا وأعلن كابيلا عزل موبوتو وغير اسم زائر إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية لكن حدثت حركة تمرد ضد حكم رولان كابيلا - وفى . ١ يوليو ١٩٩٩ وقع في لوركا عاصمة رامبيا اتفاق لوقف اطلاق النار فى الكونغو ووافقت عليه كل من أوغندة ورواندا اللتين كاننا تدعمان المتمردين وكذلك زيمبابوى وانجولا وناميبيا التي أيدت كابيلا لكن لم تنفذ بنود الاتفاق – وفى ١٥ يناير ٢٠٠١ أغتيل رولان كابيلا برصاصة أطلقها عليه أحد حراسة وقرر المؤيدون لكابيلا أن يخلفه ابنه جوزيف كابيلا في الحكم وفى قيادة القوات المسلحة .

الفصل السادس

تجارة الرقيق

- بريطانيا وتجارة الرقيق
- حركة المطالبة بإلغاء الرق
- الجهود الأفريقية لإلغاء الرقيق
- أثر إلغاء الرق على المجتمعات الأفريقية

تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق من أبرز مظاهر النهب الإمبريالي لأفريقيا، واكتوت بنارها المجتمعات الأفريقية سواء فى غربى القارة أو شرقها، فتركت آثاراً مدمرة على المجتمعات البشرية الأفريقية، وشكلت مأساة تاريخية إنسانية، ولم تكن تلك التجارة هدفا – في حد ذاتها – للسيطرة الإمبريالية على أفريقيا عندما طرقت القوى الأوروبية أبواب القارة في القرن الخامس عشر، ولكنها أصبحت دعامة النهب الاستعماري منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، على نحو ما سنرى فقد كان جل اهتمام الأوروبيين عند بداية زحفهم على القارة الأفريقية منصرفا إلى تجارة الذهب والعاج والفلفل، كما أن أفريقيا لم تتح للأوروبيين - في تلك المرحلة – فرصة الاستقرار كما كانت الحال في أمريكا أو جزر البحر الكاريبي بسبب ظروف المناخ، وصعوبة المواصلات، وانتشار الأمراض التى لم يعرفها الرجل الأبيض من قبل. فكانت علاقة الأوروبيين بالأفارقة علاقة تبادل تجارى يحصل فيها الأوروبيون على الذهب والعاج والفلفل مقابل بعض السلع المعدنية البسيطة والأقمشة ثم دخلت المشروبات الروحية بعد ذلك ضمن السلع الأوروبية التي تصدر إلى أفريقيا، وكذلك الأسلحة النارية.

وحدث تحول فى التجارة الأفريقية أصبح الرقيق فيه في طليعة السلع الأفريقية، وذلك فيما بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر، وكان الدافع إلى هذا التغيير زيادة الطلب على العبيد للعمل فى المزارع الأمريكية ولم تكن تجارة الرقيق بدعة أوروبية مستحدثة إذ عرفتها التجارة الأفريقية من قبل، فقد جرت عادة حكام غرب أفريقيا على تصدير بعض العبيد إلى المغرب العربي، ومن ثم كانت تجارة الرقيق الأوروبية - في تلك المرحلة بمثابة توسع فى الطلب على سلعة معينة شجع تجار الذهب الأفارقة على التحول إلى تجارة الرقيق، وكان مصدر تلك التجارة – في بداية الأمر يأتي من بين أسرى الحروب التي كانت تنشب بين

القبائل وبعضها البعض، أو من بين أولئك الذين يفقدون حريتهم نتيجة الوقوع في ربقة الدين.

وجلب التحول إلى تجارة الرقيق الحرب والدمار إلى المجتمعات الأفريقية الآمنة المطمئنة، فغذى تجار الرقيق نيران حروب محلية في الشمال والشمال الشرقي للحصول على المزيد من الرقيق مستخدمين الأسلحة النارية، وتحول تبعاً لذلك المركز التجاري لغرب أفريقيا من منطقة السافانا وشمال أفريقيا إلى سواحل جنوب غربي القارة، حيث استقر التجار الأوروبيون في مستوطنات على الساحل، استأجروا أرضها من القوى المحلية الأفريقية، وأقاموا عليها حصوناً تحميهم من غارات منافسيهم الأوروبيين . وتحولت تلك القلاع إلى جيوب أوروبية على طول الساحل الجنوبي الغربي، استقرت فيها حاميات عسكرية قوية، وكان أول الحصون التى بنيت فى المنطقة هو ذلك الذي أقامه البرتغاليون على ساحل الذهب وكان يعرف بإسم ساوجورج دى مينا، ثم أصبح يعرف – بالمينا ELMINA، وتم بناءه فى عام 1482 وبانتشار تلك الحاميات على الساحل الجنوبي الغربي إزداد حجم التجارة الأوروبية ـ الأفريقية، وانعكست آثارها على – فيما بعد المجتمع الأفريقى ذاته.

فقد أدى التنافس بين القوى الأوروبية وبعضها البعض إلى قيام تحالفات بين كل قوة أوروبية وإحدى الجماعات الأفريقية ومع احتدام المنافسة اشتد الصراع وانعكست على المجتمعات الأفريقية ذاتها، فجرت التحالفات إلى صراعات أريقت فيها الدماء الأفريقية حيث حرصت المراكز التجارية الأوروبية المتناثرة على الساحل على عدم قيام كيانات أفريقية قوية في الداخل حتى لا يتأثر تدفق الرقيق على الساحل، ومن ثم زجوا بحلفائهم الأفارقة في معارك ضد إخوانهم في الداخل حققت هدفين: أولهما، الإبقاء على التمزق السياسي في الداخل، وثانيهما الحصول على المزيد من الرقيق من بين أسرى الحرب.

وهكذا لم يدم احتكار البرتغاليين لتجارة غرب أفريقيا فقد زاحمهم الفرنسيون ثم الإنجليز فالهولنديين، وأدى اتحاد أسبانيا والبرتغال عام 1580 إلى فقدان البرتغال

لمواقعها الحصينة على ساحل الذهب، ولقيت المصالح البرتغالية ضربة قاضية بفقد حصن المينا 1637 واكسيم 1642 أى بعد عامين من إدخال زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية، ولم يستطع البرتغاليون إقامة مركز لهم على ساحل العبيد الغربي إلا بعد ذلك بثمانين عاماً، وحتى ذلك المركز لم يقم بجهود لشبونة ولكنه قام بجهود البرازيل التي كانت مستعمرة برتغالية.

وباستثناء شركة الهند الشرقية الهولندية، لم يكن النجاح حليف المصالح الأوروبية الإحتكارية التي مارست نشاطها على ساحل العبيد في النصف الثاني من القرن السابع عشر. فقد قضت حروب الأراضي المنخفضة على مغانم شركة التجار المغامرين الإنجليزية، كما دب الفساد في الشركة الأفريقية الملكية التى كانت نهباً للعاملين فيها، ولم تجلب تجارة الرقيق لهذه الشركة عائداً ذا بال مقارنة بتجارة التبر والعاج وغيرها من سلع الإقليم. وهكذا غرقت الشركة الأفريقية الملكية في الديون وعبثاً حاولت أن تحمى مصالحها في مواجهة المنافسة الأجنبية، فتمت تصفيتها وانتقلت إمتيازاتها إلى شركة التجار المغامرين.

كانت الشركات الفرنسية المشتغلة بتجارة العبيد أقصر عمراً، ففيما بين عام 1664 و 1684 ورثت ثلاث من الشركات إمتياز شركة الهند الغربية الفرنسية الواحدة تلو الأخرى دون أن تعمر إحداها طويلا حتى استقر الإمتياز فى يد شركة غينيا (وهى شركة فرنسية) من 1685 حتى ،1713 التي عجزت عن الوفاء بالتزامها بتوريد 4800 عبد سنويا إلى المستعمرات الأسبانية، و3000 عبد إلى جزر الأنتيل الفرنسية، ولم تنجح إلا في إقامة حصن سان لويس (1704) الذى انتقلت ملكيته إلى شركة الهند الفرنسية في عام 1720 ،وظل بيدها حتى سقطت تجارتها نتيجة حرب السنوات السبع.

وتشير مصادر تجار الرقيق الأوائل أن مدينة هويدا كانت من أنشط مراكز تجارة الرقيق طوال نصف القرن قبل أن تدخل ضمن مملكة أبوسى، إذ تذكر أن هويدا قدمت للمراكز التجارية الإنجليزية ما تراوح بين 14 15 ألفاً من العبيد سنوياً

في الثمانينات من القرن السابع عشر. وذكر أحد الفرنسيين أن عدد العبيد الذين بيعوا في ستة شهور بلغ 2300 عبدا، وأن ما يطرح للبيع من العبيد في كل شهر لا يقل عن مائتي عبد، ولكن كان يعيب هذا المركز الهام لتجارة العبيد صعوبة الوصول إليه أحياناً بسبب ضراوة الأعاصير بين أبريل ويوليو، غير أن المغانم التي كانت تعود من وراء تجارة الرقيق شجعت التجارعلى ركوب الأخطار

غير أن هويدا لم تنفرد وحدها بتجارة الرقيق دون الكيانات المحلية الأخرى، فقد أدت أرباح تلك التجارة وتشجيع الأوروبيين لها، وزيادة الطلب عليها، إلى تنافس القوى الأفريقية المحلية مع بعضها البعض من أجل الفوز بنصيب الأسد في تلك التجارة. وهكذا تعرضت هويدا للمنافسة من جانب أدجا ADGA وسافى SAVI غير أن العبيد ظلوا يتدفقون على سوق هويدا من مسافات تبعد نحو مائتي ميل داخل القارة. وبلغت تجارة الرقيق في هويدا ذروتها بحلول عام 1716 حيث كان الفرنسيون وحدهم يصدرون ما يقرب من ستة آلاف عبد سنوياً، على حين كان الإنجليز والبرتغاليون معاً يصدرون ما يقرب من سبعة آلاف رأس من العبيد، وصدر الهولنديون نحو 1500 عبداً. وكانت أسعار بيع العبيد تحدد على أساس المقايضة فيساوى كل عبد أو مجموعة من العبيد قدراً معيناً من السلع الأوروبية كالأقمشة والخرز والبنادق والبارود والمشروبات الكحلية والتبغ والقضبان الحديدية. وقد بلغ ثمن العبد فى الخمسينات والستينات من القرن السابع عشر ما يعادل ثلاثة جنيهات إسترلينية، ثم ارتفع ثمن العبد في عام 1669 فبلغ ثمانية جنيهات ، ويرجع ذلك إلى زيادة أسعار البارود الذى كان يدخل ضمن السلع التي يبادل بها الأوروبيون العبيد، بقدر ما يرجع إلى تنافس التجار الأوروبيين على الشراء.

وتعرضت هويدا فى منتصف العشرينات من القرن الثامن عشر إلى الغزو من جانب جاراتها الأفريقيات بهدف السيطرة على تلك السوق الكبيرة واستمر الصراع بين الكيانات الأفريقية لما يزيد عن أربعين عاماً إنتقلت خلالها السيطرة

على سوق الرقيق الأفريقية من يد إلى أخرى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

بريطانيا وتجارة الرقيق

أخذت دول أوروبا الغربية تطور أساليب سياستها الإمبريالية فى النصف الأول من القرن السابع عشر في المجال التجارى فركزت تلك الدول جهودها على توسيع التجارة من أجل رخائها الاقتصادى. ولما كانت التجارة الدولية محددة الحجم، فقد شرعت كل دولة تزيد من نصيبها من تلك التجارة على حساب الدول المنافسة لها ومن ثم سعى الإنجليز خلال ذلك القرن إلى التحكم في الأسواق التي كان يسيطر عليها الهولنديون أو الفرنسيون أو الأسبان أو البرتغاليون فيما وراء البحار. ولما كان الإنجليز قد أخذوا في التوسع في استعمار أمريكا وجزر البحر الكاريبى جزر الهند الغربية، فقد كانوا في أمس الحاجة إلى عمل العبيد في وقت كانت فيه تجارة الرقيق حكرا للهولنديين، ودفعهم ذلك إلى تثبيت أقدامهم على ساحل العبيد فيما بين ساحل الذهب وبينين كما دفعتهم إلى محاربة الهولنديين من حين لآخر.

واستمر ذلك يمثل خطاً ثابتاً للسياسة البريطانية فى عصر ستيوارت والكمنولث (كروميل)، لأن الطبقة صاحبة النفوذ السياسي في بريطانيا – في ذلك الحين – كانت طبقة التجار التي وجهت سياسة الدولة إلى خدمة مصالحها، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية. ولا ريب أن معظم الصعاب التي واجهت جيمس الأول كانت ترجع إلى عدم تحمسه وتبنيه لقضايا التجار، كما أن قوانين الملاحة التي صدرت في عهد كروميل ، وجعلت نقل الورادات إلى بريطانيا قاصراً على السفن الإنجليزية أدت إلى الدخول في حرب مع الهولنديين، كما أن كروميل وإليزابيث كانا يخشيان جانب أسبانيا أكثر من خشيتهم جانب الهولنديين أو الفرنسيين.

غير أن الهولنديين ثم الفرنسيين أصبحوا في طليعة منافسى بريطانيا فيما وراء البحار، لأن الأسبان والبرتغاليين كانوا يفتقرون إلى طبقة تجار متمرسة تحكم

الاستفادة من الأسواق التي بلغتها أساطيلها، ولذلك تلاشى خطرهما بمجرد اكتمال نضج طبقة التجار في هولندا وانجلترا وفرنسا.

فإذا كان لابد من تحديد سنة بعينها تبدأ بها تجارة الرقيق الإنجليزية، فإن تلك السنة هي عام 1640، حيث بدأ المستعمرون الإنجليز فى بريادوس (إحدى جزر البحر الكاريبي) في زراعة قصب السكر التي فتحت الباب على مصراعيه أمام الطلب على العبيد في الممتلكات الإنجليزية عبر الأطلنطى. وقد اعتمد زراع القصب الإنجليز على التجار الهولنديين - في بداية الأمر – لسد حاجتهم إلى الرقيق ولكن عندما توسعت تجارة السكر الذي كانت تنتجه جزيرة بربادوس وغيرها من جزر البحر الكاريبي وجد الإنجليز أنه من الأفضل لهم التخلص من الإعتماد على الهولنديين في سد حاجتهم من الرقيق، ورأوا أن يأخذوا على عاتقهم الإشتغال بهذه التجارة، لأن بقائها في يد الهولنديين يعني فقدان التجارة الإنجليزية لجانب من الأرباح التي يمكن تحقيقها من وراء تجارة السكر لصالح خصومهم الهولنديين، فمنح شارل الثانى لمجموعة من التجار الإنجليز إمتياز الإتجار مع أفريقيا وتكوين شركة لهذا الغرض عرفت بإسم شركة المغامرين الملكيين لأفريقيا"، ثم تغير إسم هذه الشركة في 1672 إلى الشركة الأفريقية الملكية " وكان الملك نفسه من بين حملة أسهمها وأنيط بهذه الشركة من المستعمرات البريطانية بثلاث آلاف عبد سنوياً على أن يكون ثمن العبد الواحد معادلاً لثمن طن واحد من السكر (أى 17 جنيهاً إسترلينيا).

غير أن الشركة ضاقت ذرعا باقتصار تجارتها على المستعمرات البريطانية وحدها، فأخذت تبيع العبيد للمستعمرات الأسبانية والفرنسية مما أثار احتجاج زراع قصب السكر الإنجليز حتى لا يؤدى ذلك إلى إرتفاع أسعار العبيد ولكن احتجاجاتهم ذهبت أدراج الرياح بسبب العائد المجزى الذى كانت تدره تجارة الرقيق التي أصبحت مجالاً استثمارياً قائماً بذاته بعد أن كانت ترتبط بالطلب على العبيد في مزارع قصب السكر، وحققت تجارة الرقيق البريطانية إنتصاراً ضخماً في معاهدة

أوترخت 1713 التي أنهت حرب الوراثة الأسبانية (1701 1713) حين حصلت بريطانيا على حق مد المستعمرات الأسبانية بحاجتها من الرقيق.

وهكذا سجل القرن الثامن عشر ذروة الرخاء الاقتصادي لبريطانيا، وزاد حجم الصادرات البريطانية، وتنوعت وارداتها لتسد حاجة الجماهير الواسعة لأول مرة) فشملت البن والشاى والسكر والتبغ التي زاد استهلاكها في بريطانيا على مدى القرن. فكان القطن يرد من المستعمرات ليصنع في لانكشير ثم يعاد تصديره في شكل منسوجات قطنية . وكانت السفن تغادر ليفربول حاملة المنسوجات القطنية إلى أفريقيا، فتفرغ حمولتها من القطن هناك، ثم تحمل العبيد متجهة إلى أمريكا أو جزر الهند الغربية حيث تفرغ حملوتها من العبيد، وتعود إلى بريطانيا بشحنات من القطن أو السكر أو التبغ.

وبعد أن تخلص الإنجليز من المنافسة البرتغالية ثم الهولندية في تجارة الأطلنطي، قضوا معظم القرن الثامن عشر في التصدى للمنافسة الفرنسية، حتى أصبحت تجارة الأطلنطى وقفاً عليهم، ففي عام 1771 بلغ عدد السفن الإنجليزية التي غادرت موانى انجلترا قاصدة أفريقيا 188 سفينة حملت خمسون ألفاً من العبيد إلى أمريكا وكانت الأرباح التي حققتها تجارة الرقيق والنشاط التجارى المرتبط بها حجر الزاوية في الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به بريطانيا فى ذلك القرن، والذى مهد الطريق أمام الثورة الصناعية وما ترتب عليها من فتح مجالات واسعة للثراء، حين رسخت أقدام الرأسمالية الصناعية. وبوقوع هذا التطور، فقد اقتصاد المزارع الذى كان دعامة النهب الإمبريالي لأمريكا وجزر الهند الغربية أهمية مقارنة بما كانت تدره الاستثمارات الصناعية، وفقدت بالتالي تجارة الرقيق أهميتها الاستثمارية، وأصبح بالإمكان الاستماع إلى المطالبين بإلغاء تلك التجارة اللاإنسانية.

حركة المطالبة بالغاء الرق

فقد قامت في بريطانيا حركة تدعو إلى إلغاء الرق وإيقاف تجارة الرقيق، وترددت أصداء تلك الحركة فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية فيما بين 1783 و

1888. ورغم ما اتسمت به تجارة الرقيق من اللاإنسانية، إلا أنها لم تثر اعتراض أحد حتى حلول القرن الثامن عشر فبدأ المفكرون المستنيرون فى توجيه الإنتقادات إلى تلك التجارة لمنافاتها لحقوق الإنسان، كما أن الجماعات الدينية أدانت تجارة الرقيق باعتبارها نشاطاً لا تقبله المسيحية. وبدأ المنادون بإلغاء الرق يفكرون في إيجاد حلول اجتماعية لمشاكل الرقيق تضمن لهم حياة كريمة بعد إلغاء الرق، وكان المفكرون الفرنسيون أرسخ قدماً في هذا المجال.

وفي أواخر القرن الثامن عشر إتسع نطاق حركة المطالبة بإلغاء الرق، والتف حولها الأنصار، وحققت قدراً من النجاح. ففى انجلترا نجح جرانفيل شارب في استصدار حكم (عام 1772) قضى بحظر امتلاك العبيد في إنجلترا لمنافاة ذلك للقانون الإنجليزي. كما أدان قادة الثورة الأمريكية الرق، وقامت الولايات الواقعة إلى الشمال من ماريلاند بالغاء الرق تدريجياً أو دفعة واحدة وذلك فيما بين عام 1777 و 1804، بينما قام في الولايات الجنوبية العديد من الجمعيات لتشجيع ملاك العبيد - على فك رقابهم – ولكن ذلك القدر من النجاح الذي حققته الحركة في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لم يكن ذا بال بالنسبة لمراكز الرق فى المزارع الكبرى فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وجزر الهند الغربية، وأمريكا الجنوبية، فكانت الحركة تتقدم ببطء شديد ف تلك الجهات.

وقد مرت حركة إلغاء الرق بمراحل ثلاث

شملت المرحة الأولى الجهود الأمريكية والإنجليزية لتحريم جلب العبيد الأفارقة إلى المستعمرات الإنجليزية والولايات المتحدة الأمريكية وقد شنت جماعة الكويكرز الإنجليزية حملة لتحقيق هذه الغاية في عام 1782 ، ثم تكونت جمعية إلغاء الرق في عام 1787 بزعامة وليم ولبرفورس الذى قاد الحركة في البرلمان الإنجليزي، وتوماس كلاركسن الذى بذل جهوداً مضنية في إقامة الأدلة على مضار تجارة الرقيق، وبعد نحو عشرين عاماً تلك الجهود الغيت تجارة الرقيق فى

المستعمرات الإنجليزية من عام 1807، وتم إلغاؤها في الولايات المتحدة في نفس السنة.

واعتقد المشتغلون بحركة إلغاء الرق أن توقف العرض فى سوق العبيد سوف يؤدى إلى اختفاء الرق تدريجياً، ولكن ذلك لم يحدث بالفعل، مما دفعهم إلى المطالبة بتحرير العبيد في المرحلة الثانية من مراحل تلك الحركة. فتأسست جمعية مكافحة الرق في بريطانيا عام 1823 بزعامة توماس فويل باكستون الذى تولى زعامة هذا الإتجاه في البرلمان فنجح عام 1833 فى استصدار قانون قضى بتحرير العبيد في المستعمرات الإنجليزية بعد ست سنوات من تاريخ صدور القانون مع تعويض ملاكهم ماديا. وفي عام 1848 ألغت فرنسا الرق في مستعمراتها بجزر الهند الغربية واحتاج إلغاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حرب أهلية إشتعل أوارها بين الولايات الشمالية والجنوبية مدة خمس سنوات (1861 – 1865) إنتهت بتحرير العبيد تحريراً تاماً في عام 1865.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد استهدفت إلغاء تجارة الرقيق على النطاق العالمي ، وتزعمت بريطانيا هذا الإتجاه مطالبة بحق تفتيش السفن التي يشتبه في حملها للعبيد وبذلك تضمن لأسطولها حق مراقبة التجارة الدولية، وبدأ ذلك في مؤتمر فيينا 1815 حين وافقت الأطراف المشتركة على إلغاء تجارة الرقيق ولكن تردد بعضها في الموافقة على تخويل الأسطول البريطاني حق تفتيش السفن التابعة للدول الأخرى . وبذلك ظلت تجارة الرقيق نشطة وازدهرت تجارة تهريب العبيد إلى البلاد التي حرمت الإتجار في الرقيق، حتى أن ما صدر من غرب أفريقيا من الرقيق بلغ 50 ألفاً في عام 1850 وبتوقيع الولايات المتحدة على اتفاقية إلغاء تجارة الرقيق وتسليمها لبريطانيا بحق التفتيش (1862) تتابع تصديق الدول على هذه الإتفاقية، وبذلك وضع حد لتجارة الرقيق. ولكن الآثار التي ترتبت على تلك التجارة بالنسبة لأفريقيا استعصت على العلاج.

جهود أفريقية لمقاومة تجارة الرقيق :

فـى الوقـت الـذى كانـت بريطانيـا تـوالى جهودهـا لمقاومـة الـرق مـع الـدول الأوربيـة قامـت بضـغط مماثـل مـع الزعمـاء الأفارقـة، وعقـدت معهـم حـوالي ١٥٠ معاهـدة صـداقة وسـلام تنـازل الزعمـاء بمقتضـاها عـن أجـزاء مـن بلادهـم لبريطانيـا وتعهدوا فيها بالامتناع عن الاتجار فى الرقيق ، وكان هذا فى مقابل بعض الهدايا من الأقمشة والاطباق والخمور ـ وليس معنى عقد هذه المعاهدات ان الزعماء الأفارقة لم يقوموا بعمل ايجابى من وحى أنفسهم من واقع الشعور بالمسئولية للقضـاء علـى هذه التجارة ، فهناك بعض الجهود الأفريقية لمقاومة تجارة الرقيق وبدأت تلك الجهود فـى عام ١٥٢٦ عندما كتب الملك المشهور لدولة بـاكونجو (Bakongo) التابعـة للكونغو (قرب مصب النهر) خطابا يحتج فيه علـى ملك البرتغـال ألفونسو ويشكو إليـه بـان تجارة الرقيق قد سببت أضرارا كثيرة لدولته .

وفى داهومى على ساحل أفريقيا الغربي أرسل الملك أجاجا (Agaja) جيشه للاستيلاء ء على مدينة اداره (Ardrah) في عام 1724 بقصد القضـاء علـى تجـارة الرقيـق وأرسـل خطابـا إلـى الحكومـة البريطانيـة يخبرهـا برغبتـه فـى ايقـاف تصـدير الرجال والنساء من شعبه ، وشرح لهم الأضـرار التـي عـادت علـى دولتـه مـن جـراء هذه التجـارة البشـعة . ومثـال آخـر أورده رحالـة سويدى فـى عـام 1789 عنـدما زار الإمامـة فـى فوتـاتوره فـى شـمال السـنغال وقـد كتـب هـذا الرحالـة بانـة فـى فوتـاتور أصـدرت قانونـاً ينص علـى عدم أخذ أى رقيق من فوتـاتور للبيـع فـى الخـارج ولقد حاولت السفن الفرنسية إرغام الإمام على انهاء العمل بهذا القانون ، ولكنه رفض هذا بالإضافة إلى عدة محـاولا ت أخـرى فـى منطقـة (بنين) ولكنهـا بـاءت بالفشـل ولعل السبب فى ذلك يرجع إلـى أن تجـارة الرقيـق كانـت جـزءا أساسيا مـن النظـام التجـارى لغرب أفريقيا حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وذلك للعمل فـى المنـاطق الاستوائية الأمريكية ـ

وفى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر بدأت حكومة الولايات المتحدة تبذل جهودا جادة للقضاء على هذه التجارة ولم يأت عام ١٨٦٥ حتى كانت تجارة الرقيق عبر الأطلسى قد انتهت، وشهد فى الجنس البشرى فقامت بريطانيا بعقد بعض المعاهدات مع الدول من أجل القضاء على الرق ، ومن أبرز تلك المعاهدات هذه المعاهدة مع سلطان زنجبار فى الخامس من يونية ١٨٧٣ ، ونصت على منع تصدير العبيد فى ممتلكات سلطان زنجبار وإغلاق كل الأسواق العالمية التى تقوم فى مملكته بالتعامل فى الرقيق.

كما عقدت بريطانيا معاهدة مع مصر فى الثالث من أغسطس ١٨٧٧ جاء فى مادتها الخامسة بتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بالمعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر ابتداء من تاريخ نشر الامر المشار اليه مع تخصيص نوع الجزاء الذى يترتب على من يخالف ذلك .

وعلى المستوى الدولى واصلت بريطانيا جهودها مع بقية الدول الأخرى على أن تتضمن كافة اللقاءات الدولية ما يفيد إلغاء الرق وتحريم الإتجار فيه ، وجاء ذلك فى مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/ 1885 جيث نصت المادة التاسعة من نصوص المؤتمر على أنه نظراً لأن تجارة الرقيق ممنوعة طبقاً لمبادئ القانون الدول الذى تعترف به القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر ونظرا لأن عمليات نقل الرقيق برأ وبحرا ممنوعة، لذا فإن القوى التى لها حقوق سيادة أو نفوذ فى المناطق التى تكون حوض الكنغو، تعلن أن هذه المناطق لن تستخدم كسوق للرقيق وتلتزم كافة القوى بإتخاذ كافة الوسائل لوضع حدا لهذه التجارة ومعاقبة المشتغلين بها .

وفى مؤتمر بروكسل الذى عقد فى الثانى من يوليو ١٨٩٠ لبحث مسألة الرقيق الأفريقى نلاحظ أن معظم مواد هذا المؤتمر تدو حول القضاء على تجار الرقيق ، وتنظيم عمليات القضاء عليها . وقد أفاض المؤتمر كثبرأ فى النقاط والبنود التى نتعلق بالقضاء على هذه التجارة فلقد نصت المادة الثالثة على أن تتعهد القوى التى تمارس السيادة أو الحماية على مناطق فى أفريقيا أن تعمل على القضاء عليها

باى وسيلة فعالة ومن حق القوى التى تفوض مسئولياتها إلى شركات ذات براءة فى كل المناطق الواقعة تحت سيادتها، وتصل هذه القوى مسئولة بشكل مباشر عن تنفيذ هذه البنود .

ويقع هذا المؤتمر فى سبعة فصول تضمنت مائة مادة تدور كلها حول تجارة الرقيق والأسلحة النارية ، وقد أشتمل الفصل الأول على مواد خاصة بالتنظيم الإداري والقضائي والديني والعسكري والعقوبات التى توقع ضد من يتاجر فى الرق كما تضمن هذا الفصل بنودا حول الرقيق المحرر وبناء المعسكرات ومحطات استقبال الرقيق المحرر ، ويتضمن الفصل الثانى بنودا خمسة تدور حول مراقبة طرق التجارة فى الرق وكذلك الوسائل الواجب اتخاذها لمنع الاتجاد فى الرق وأيضا طرق تحرير الأفراد والارقاء .

وقد تصدرت المادة الأولى من قرارات هذا المؤتمر إعلان القوى الموقعة على هذا المؤتمر باتخاذ الوسائل الآتية للقضاء على الرقيق .

١) التنظيم المستمر للخدمات الإدارية والقضائية والعسكرية للمناطق الأفريقية التى تدخل تحت حمايسة وسيادة الأمم المتحدة .

2) أن تقوم القوى المسئولة فى كل منطقة بإنشاء محطات قوية بشكل تدريجى فى الداخل وتكون مهمتها إتخاذ الإجراءات الفعالة لكبح وحماية عمليات صيد الرقيق في المناطق التى دمرت بسبب هذه التجارة.

3) إنشاء الطرق وخصوصا السكك الحديدية التى تربط هذه المحطات المتقدمة بالساحل والعمل لسهولة الاتصال بالمياه الداخلية وإلى مجارى الأنهار ومنابعها والتى تفصلها الشلالات والجنادل وذلك لاحلال وسائل نقل سريعة اقتصادية بدلاً من وسائل الحمل عن طريق الرجال .

4) بناء القوارب التجارية على المجارى المائية الصالحة للملاحة وكذلك على البحيرات فى الداخل بشرط أن تساندها مراكز محصنة على الشواطئ .

5) إنشاء الخطوط التلغرافية التى تضمن إتصال هذه المراكز والمحطات مع الساحل ومع المراكز الإدارية .

6) تنظيم الحملات والطوابير المتحركة لاستمرار عملية اتصال المحطات مع بعضها البعض ومع الساحل بقصد مساندة الأعمال القمعية ولضمان سلامة طرق المواصلات .

7) الحد من استيراد الأسلحة النارية أو على الأقل الأنماط الحديثة وكذلك الذخائر فى كل المناطق التى تأثرت بتجارة الرقيق .

كما جاء فى المادة الثالثة أن تتعهد القوى التى تمارس حق السيادة أو الحماية فى أفريقيا بالعمل تدريجيا كلما سمحت الظروف لكى تؤكد وتدقق فى قراراتها السابقة وذلك بالوسائل السالف ذكرها أو أى وسيلة أخرى مناسبة تهدف إلى القضاء على تجارة الرقيق داخل منطقتها الخاصة وتحت إشرافيا لنفس الفرض وبهدف إنساني محض .

كما نصت المادة الخامسة على ان تتعهد الدول الموقعة على مرسوم المؤتمر بتطبيق القوانين الواردة به وأن تصدر التشريعات الخاصة بوضع عقوبات على الأشخاص الذين يشتركون فى القبض على الرقيق بالعنف ، ونصت المادة السادسة علي أن الرقيق المحررين نتيجة توقف أو مصادرة قوافل الرق داخل القارة سوف يعودون من جديد إذا سمحت الظروف إلى مناطقهم الأصلية .

وجاء فى المادة السادسة يتم إرسال الرقيق المحررين طبقًا للتوقف أو تشتت السفن فى داخل القارة إلى موطنهم الأصلي بقدر ما تسمح به الظروف وإذا تعذر ذلك تقوم السلطات المحلية بمساعدتهم فى الحصول على وسائل الرزق إذا رغبوا فى الإقامة فى نفس المناطق .

وجاء فى المادة السابعة أن أى هارب يطلب من الدول الموقعة على هذا المرسوم حمايته فعليها أن تلبى طلبه ، وان تستقبله داخل المعسكر أو المحطات التى

أنشئت لهذا الغرض على ظهر السفن الحكومية ويجب على الحكومات التى توافق على هذا الإتفاق أن تباشر مسئولياتها نحو حماية الرقيق المحررين ، وان تكفل لهم سبل الحياة الكريمة .

وبدأت الدول الأوربية ابتداء من القرن التاسع عشر وضع مبادئ تحريم الرق موضع التنفيذ ، ففى عام ١٧١٦ تأسست جمعية الاستعمار الامريكية، ومنذ تاسيسها أخذت على عاتقها مسئولية نقل الرقيق المحررين إلى ليبريا ، ولم يكن الدافع إلى ترحيل هؤلاء الرقيق إنسانياً وإنما كان الدافع الحقيقي هو أن كثيراً من الرقيق نالوا حريتهم بسبب موت أسيادهم فى الولايات المتحدة في أوائل القرن التاسع عشر وكان ملاك الرقيق يكرهون أن يجدوا فى أرضيم رقيقاً يتحولون وهم أحرار من كل سلطان فيحرصون بنى جنسيم من الرقيق على التطلع إلى الحرية وهو شئ لا يتفق أصحاب المزارع الواسعة .

وفى عام ١٨١٩ قررت الحكومة الأمريكية إعطاء البحرية الأمريكية إعطاء البحرية الأمريكية حق تفتيش السفن فى البحار بحثا عن الرقيق وأن تطلق سراحهم وتعيدهم إلى أفريقيا مرة أخرى.

ونسقت جمعية الاستعمار الأمريكية جهودها مع الحكومة وأرسلت بعثة لاستكشاف مدى صلاحية شواطئ ليبيريا للتعمير ، وحصلت الجمعية فى عام ١٨١٩ على مرسوم حكومى بإنشاء مستعمرة ليبيريا على مثال سيراليون _ لكن الحرب الأمريكية التى استمرت أربع سنوات من عام 1861- 1865 عاهددت تحرير الرقيق بسبب ارتباط الجنوبيين بالرقيق وتجارته، ولكن رغم ذلك فقد استطاع أعضاء البعثة شراء قطعة من الارف فى ليبريا وأخذت السفن تجلب الرقيق المحرر إلى هذه المنطقة ، وأخذت ليبريا تستقبل جموع الرقيق المحررين وقامت جمعية الاستعمار بإدارة شئون هذه الدولة الناشئة حتى منتصف القرن التاسع عشر ففى عام 1847 انسحبت الجمعية من هذه المهمة و أصبحت ليبيريا جمهورية زنجية مستقلة . وصار (جوزيف جنكر روبرت) أول رئيس لها، وفى عام ١٨٥7 انضمت اليها ولاية

ماريلاند، وفى أقصى مقاطعات ليبريا جنوبا، وفى عام ١٨٦٠ اعترفت الولايات المتحدة بها رسميا .“

أما الرقيق المحررين فى بريطانيا وممتلكاتها فقد أنشئت أول مستوطنة أفريقية فى سيراليون وهى مستوطنة ترتبط إرتباطًا وثيقا بقصة الرق فى بريطانيا حيث ترتب على حكم القاضى مانسفيلد فى عام ١٧٧٢ أن عدد كبير من الخدم الزنوج تجاوز أربعة عشر الفا هاموا على وجوههم فى طرقات وشوارع لندن دون عمل ، مما ترتب عليه بطالة وجوع ومرض، وبذلك ظهرت مشكلة تحتاج إلى حل ، وهنا أحس جرانفافل شارب بمسئوليته فسارع بالإنضمام إلى لجنة تكونت بعد ذلك من رجال الأعمال فى لندن ١٧٨٦ وعرفت هذه اللجنة باسم لجنة إغاثة السود ونشرت نداء فى الصحف لجمع التبرعات لتحسين أحوال السود ، ونجم عن هذا النداء جمع مبلغ ثمانمئة جنية فى شهر قلائل .

وفى عام ١٧٨٦ تقدم دكتور هنرى سميثمان (Henry smeathman) بمشروع لإقامة مستوطنة فى شبه جزيرة سيراليون لإيواء الزنوج فى بريطانيا واقتنعت لجنة السود بهذا الإقتراح وعرضته على وزارة الخزانة البريطانية التى وافقت عليه ، وتكلفت بدفع الأموال اللازمة لنقل الرفيق إلى سيراليون ، وبالفعل تم جمع كل العبيد المتسولين من الطرقات والشوارع وأمكن شحن سفينتين ، وقد وصلت القافلة إلى تنارف (Teneriffe) أحدى جزر كناريا من مايو ١٧٨٧ ، وبعد أسبوع قضته هناك واصلت سيرها إلى خليج فرمشمانز (Frenchman's Bay) عند مصب سيراليون.

وفى عام ١٧٩٠ نجح جرانفل شابرب وزملاؤه فى تأسيس شركة عرفت باسم رابطة سان جورج بهدف تشجيع وتنشيط التجارة المشروعة مع ساحل غرب أفريقيا . وفى ١٧٩١ زاد عدد مؤسسي الجمعية حتى بلغوا مائة عضو وطالبوا البرلمان بإصدار قرار تأسيسي الشركة .

وعرض المشروع على مجلس العموم، وصدر القانون بتأسيس شركة سيراليون فى السادس من يونيه ١٧٩١ وحلت محل الشركة السابقة وفى ١٥ يناير ١٧٩٢ حملت السفن المهاجرين حوالي ١١٣١ فردا ومات أثناء الرحلة ٥٦ رجلا .

واستمرت الشركة تباشر عملها ولكن بسبب الخسائر الفادحة بدأت المحاولات فى عام ١٨٠٣ لإقناع الحكومة بتولى أمور سيراليون ، وأرسلت لجنة برلمانية للتحقيق فى خسائر الشركة وأوصت هذه اللجنة بنقل إدارة المستوطنة إلى الحكومة ووافق البرلمان بالفعل على صرف المبالغ اللازمة لإقامة المزيد من التحصينات ، وفى أوائل عام ١٨٠٧ صدر قانون بتحويل المستوطنة إلى مستعمرة للتاج وحلت شركة سيراليون ورفع العلم البريطاني على المستوطنة وهكذا صارت سيراليون مستعمرة بريطانية وانتهت قصة الرق داخل بريطانيا بعد صدور قرار إلغاء هذه التجارة فى الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار، وصار امتلاك العبد محرما فى أى جزء من الممتلكات البريطانية في عام 1833.

آثار تجارة الرقيق على المجتمعات الأفريقية

من الصعوبة أن نضع تقديراً دقيقاً لتعداد الرقيق الذين صدروا من غربي أفريقيا عبر الأطلنطي، فمن المعتقد أن تعداد من وصلوا منهم إلى أمريكا يتراوح ما بين 15 – 20 مليون نسمة، ولما كان كل عبد يصل حياً إلى أمريكا يموت إلى جانبه عبد آخر خلال الرحلة نتيجة عدم ملاءمة السفن التي حملتهم من الناحيتين الصحية والإنسانية، فإن معنى ذلك أن إقليم غرب أفريقيا فقد ما يتراوح ما بين 30 – 40 مليوناً من سكانه خلال القرون الثلاثة التي ازدهرت فيها تجارة الرقيق، وكان هذا النزيف السكاني بالغ الأثر في مناطق بعينها. كما أن المكاسب الباهظة التى حققها الحكام المحليون من وراء الإتجار بالرقيق ، جعلتهم يهملون الزراعة والصناعة فقد كان الحصول على المنتجات المصنعة الأوروبية أمراً سهلاً، وتدهورت نتيجة لذلك الصناعات اليدوية الأفريقية، وأدت حملات صيد العبيد والحروب الأهلية إلى القضاء على الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي.

وهناك العديد من الأمثلة على فظائع تجارة الرقيق، ففي عام 1781 عانت ناقلة العبيد الإنجليزية ZONG من نقص كبير في مياه الشرب وهى في عرض البحر، فقام ربانها بإلقاء 132 عبداً في المحيط وماتوا غرقاً، لأنه عندئذ يضمن الحصول على قيمة التأمين الذي يغطى أخطار الغرق، أما إذا مات العبيد عطشاً فإن الشركة المالكة لهم لا تحصل على أى تعويض كما أن ثمة مثال لطبيعة التعامل في تلك التجارة نجده في سجلات ربان إحدى السفن الإنجليزية عام 1676 ، الذي يقرر أنه اشترى مائة عبد من الرجال والنساء والأطفال، مقابل 21 قضيباً من الحديد وخمس بنادق و 72 سكيناً، نصف برميل من البارود، وبعض القطع من الأقمشة القطنية.

وإذا كانت تجارة الرقيق قد أدت إلى إزدهار بعض المدن الساحلية التي كانت مراكز لتلك التجارة، فإن ذلك الإزدهار جاء على حساب دمار إضمحلال المدن الداخلية التي كانت مراكز التجارة المنطقة فيما قبل الإتجار بالرقيق. وإذا كان بعض الكتاب الأوروبيين يرون أن ثمة جانب إيجابي تعكسه تجارة الرقيق تمثل في تعرف الأفارقة على الأوروبيين، وإيفاد الزعماء المحليين أولادهم إلى العواصم الأوروبية لتلقي العلم، فإن ذلك كله كان لمصلحة الأوروبيين أنفسهم الذين كانوا بحاجة إلى كوادر) إدارية محلية فشجعوا الزعماء المحليين على إيفاد أولادهم إلى أوروبا للدراسة، حتى يهيأوا لإدارة بلادهم لحساب الاستعمار في مرحلة تالية.

الخرائط

افريقية
١٧٨٨ - ٦٥

طرق انتشار الإسلام في أفريقيا

افريقيا
حوالي منتصف القرن
التاسع عشر
الجزائر
(فرنسية)
بلاد البربر
الصحراء الكبرى
السودان
غانا
تشاد
سيراليون
ساحل العاج
ساحل الذهب
الحبشة
زنجبار
كيلوا
غرب افريقيا
البرتغالي
زمبيزي
شرق
افريقيه
البرتغالي
ناتال
مستعمرة
الكاب
(بريطانية)

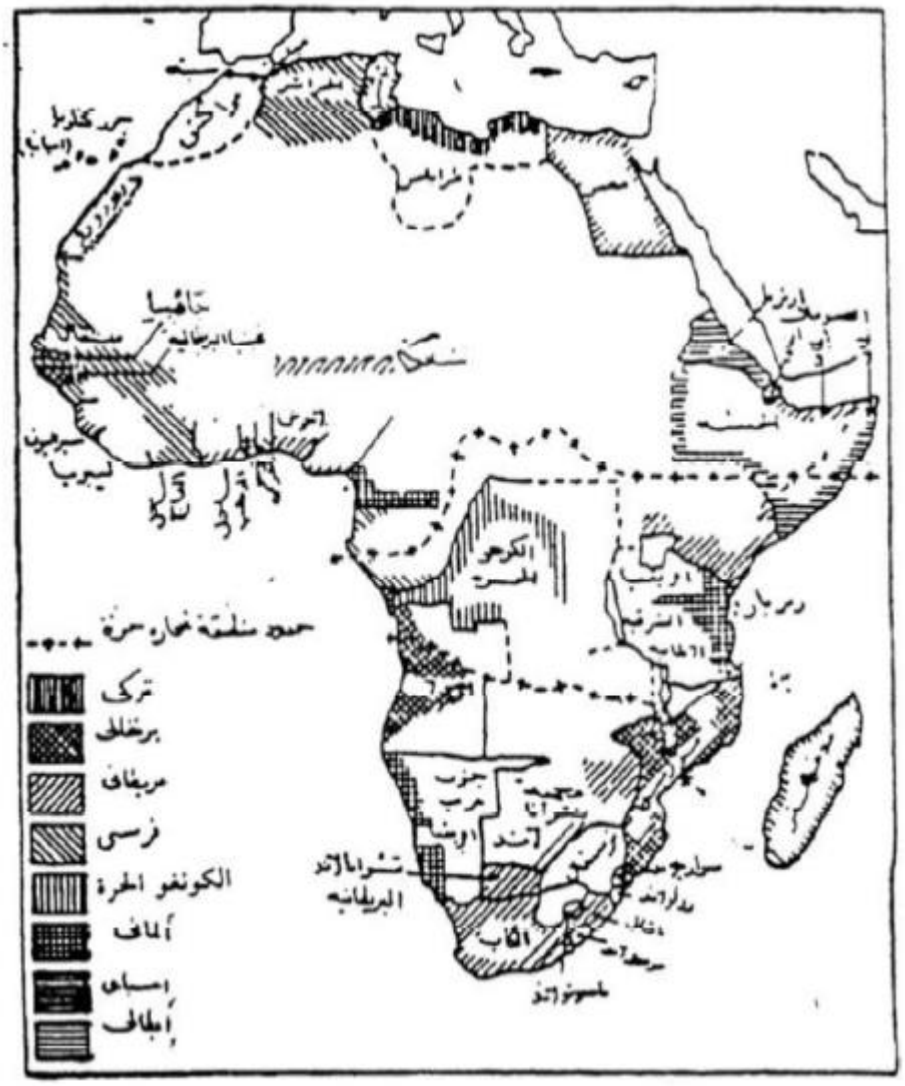

افريقيا أواخر القرن١٩م

أفريقيا ١٩١٤م

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- أحمد طاهر: أفريقيا- فصول من الماضي والحاضر. دار المعارف. مصر، 1975م.
- جلال يحيى: تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر؛ المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1999.
- _____: مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، دار المعارف ، مصر 1966.
- جون هاتش: تاريخ أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، ترجمة فتحي العشري" دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1969م.
- رءوف عباس حامد: تاريخ أفريقيا الحديث،
- زاهر رياض: استعمار أفريقيا دار المعارف، مصر، 1966م.
- _____: استعمار القارة واستغلالها: القاهرة،1966م.
- السيد يوسف نصر: الوجود المصري في أفريقيا في الفترة من ١٨٦٠ إلى 1899، دار المعارف، 1981م.
- شوقي الجمل: كشف القارة الإفريقية واستعمارها، مكتبه الانجلو المصرية. ط'2، القاهرة، 1980م.
- صلاح الدين حافظ: صراع القوي العظمي حول القرن الافريقي، سلسله عالم المعرفة،الكويت، د.ت.
- عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب افريقيا، القاهرة، 1965م.
- عبدالله عبدالرازق، شوقي الجمل: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر،ط2، دار الزهراء، الرياض، 2002م.
- فيصل محمد موسى: موجز تاريخ أقريقيا الحديث والمعاصر: منشورات الجامعة المفتوحة ، ليبيا، 1997.

- فرغلى علـى تسـن: تـاريخ أفريقيـا الحـديث والمعاصـر، العلـم والإيمـان للنشر، اسكندرية، 2008م.
- محمد عبد العزيـز إسـحاق: نهضـة أفريقيـا، الهيئـة المصـرية العامـة للتـأليف والنشر، 1971م.
- محمد عـوض محمد: الاسـتعمار والمـذاهب الاسـتعمارية، ط؛٠ دار المعـارف، القاهرة ، 1957 م.
- ميلاد القرحي: تاريخ اوروبـا الحديث والمعاصـر من عصـر النهضـة الـى الحرب العالمية الثانية الجامعة المفتوحة ليبيا. 1995م.

- يسـري الجـوهري: الفكـر الجغرافـي والكشـوف الجغرالية، منشـاه المعـارف بالاسكندرية،ط1976،3م.